اِتِّكَاءَةٌ مَعَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

إعداد

أ.د/ عبد الباقي محمّد البرير يوسف

أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية
وجامعة الإمام المهدي السودان

2021

فهرسة دار الكتب والوثائق المصرية

اِتِّكَاءَةٌ مَعَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

يوسف ، عبد الباقي محمّد البرير

ط١ ، القاهرة

١٢٥ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع : 15999/2021

ردمك : 978-977-03-8581-6

الطبعة الأولى

٢٠٢١

الناشر

المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب

AIESA

المركز العربي للنشر و التوزيع

Website: www.aiesa.org

بسم الله الحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾

سورة الحجر، آية: ﴿ ٨٧ ﴾

الإهداء

إلى محبي سورة الفاتحة "السبع المثاني" والباحثين عن أسرارها وإلى القائمين والراكعين والساجدين في جميع مشارق الأرض ومغاربها وإلى كل مسلم ومسلمة ؛ أهدي هذا الجهد.

فهرس الموضوعات

مقدِّمة الطَّبعة الأولى

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله- صل الله عليه وسلم- وعلى صحابته الغرّ الميامين.

أمّا بعدُ :

تُعد سورة الفاتحة من أعظم سور القرآن ، وهي لها شأن عظيم و فضل كبير بين سوره ، وقد دفعني ذلك إلى أن أقتصر في دراستها في عدة مواضيع :التعريف بها ، وتوجيه قراءتها وإعرابها وتفسيرها مع لمسات بيانية ثم كانت الدراسة الأسلوبية النصية وختمتها بما يؤخذ منها من فوائد وأحكام وقد استعنت بذلك بأمهات كتب إعراب القرآن وتفسيره ، قديمه وحديثه وبعض المصادر والمراجع الأخرى ، وسورة الفاتحة ترتبط بحياة كل مسلم ارتباطاً وثيقاً، ويحفظها كل مسلم وهي تعالج نواحي الخلل والأمراض المنتشرة في واقع المسلمين، وهي على قصرها فقد تضمنت معاني القرآن الكريم كله، واشتملت على قضايا أساسية، ومعلومات غنية، حيث تناولت أمور العقيدة والعبادة والتشريع والأخلاق وغير ذلك .

لقد كتبَ العلماءُ عن سورة الفاتحة في مواضيع معينة ولكن هذه الدراسة والتي قمتُ بها وفي هذا الكتاب الذي سميته " اِتِّكَاءَةٌ مَعَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ " وهي محاولة لدراسة هذه السورة الكريمة في جوانب متعددة كما أشرت لها في مقدمة حديثي، وهي بالتأكيد ستسهل وتتيح للمسلم الإلمام بالجوانب المختلفة لهذه السورة العظيمة وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن ينتفع بها كل مسلم ومسلمة وأن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم .

أ.د/ عبد الباقي محمد البرير – أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية – ١٠ شوال ١٤٤١هـ الموافق ٣١/مايو ٢٠٢٠م

الفصل الأول
التعريف بالسورة الكريمة

- مقدمة
- وقت نزول سورة الفاتحة
- أسمائها
- فضائلها
- عدد آياتها
- سبب نزول السورة

مقدمة

سورة الفاتحة من أعظم سور القرآن ولقد ورد في شأنها أحاديث كثيرة وصنف العلماء في فضائلها.. ونظرا لأهمية هذه السورة في القرآن سأحاول أن أتي ببعض الفوائد والنكت المحيطة بها وسورة الفاتحة هي أول سورة في القرآن الكريم، وحسب العقيدة الإسلامية لا تصح صلاة المسلم بدونها، إذ أن قراءتها ركن من أركان الصلاة. وقد سمى نبي الله محمد هذه السورة بأم الكتاب و أم القرآن في عدة أحاديث. ويقال لها الفاتحة أي فاتحة الكتاب، وبها تفتح القراءة في الصلوات، وهي أول سور القرآن الكريم وهي سورة مكية من السور المثاني نزلت بعد سورة المدثر وهي سبع آيات بلا خلاف. وقد اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين والتابعين أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء. وقد سميت هذه السورة بالفاتحة لأنها تفتتح القرآن أي أنها أول سورة فيه. وسورة الفاتحة تشمل جميع معاني القرآن الكريم ومقاصده. فهي كمقدمة للقرآن ككل. فقد تحدثت عن العقيدة، والعبادة والاعتقاد باليوم الآخر والإيمان بالله عز وجل وصفاته، وأفردت الله عز وجل بالعبادة والدعاء وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم. ويؤمن المسلمون أن سورة الفاتحة تعلمهم كيفية التعامل مع الله.

وقت نزول سورة الفاتحة

سورة الفاتحة هي أوّل سورة في ترتيب سور القرآن الكريم، ولها عدّة أسماءٍ، وتمتاز بالكثير من الفضائل التي اختصّها الله تعالى بها عن سائر سور القرآن، ولقد اختلف العلماء في تحديد وقتٍ دقيقٍ لنزول سورة الفاتحة؛ فقيل إنّها نزلت في مكّة، وقيل في المدينة المنورة، وقيل نزلت مرّتين مرّة في مكّة ومرة في المدينة؛ ولذلك

سمّيت سورة المثاني، ولكنّ أرجح الأقوال أنّها سورة مكّيّة، والدّليل على ذلك أنّ آية وردت في سورة الحجر هي : "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" ([1]) والمقصود بالسّبع المثاني سورة الفاتحة، وسورة الحجر سورةٌ مكيّة بلا خلاف؛ فاستدلّ بذلك على أنّ سورة الفاتحة سورةٌ مكيّةٌ. وقد ورد في سبب نزول سورة الفاتحة أنّ النبيّ –صلّى الله عليه وسلم– كان إذا سمع منادياً يناديه من الملائكة ينطلق هارباً، فأخبره ورقة بن نوفل أن يثبت ويجيب الداعي، فأتاه الداعي فناداه، فقال له رسول الله عليه السّلام: لبيك، فلقّنه المنادي الشّهادتين، ثمّ قرأ عليه سورة الفاتحة ([2])

أسماء سورة الفاتحة

ولسورة الفاتحة أسماءٌ عديدةٌ، لكلّ واحدٍ منها معناه الخاصّ، فمن أسماء سورة الفاتحة:([3])

سورة الفاتحة؛ وذلك لأنّها في أول القرآن الكريم يستفتح بها من أراد تلاوة القرآن الكريم. سورة أم الكتاب؛ وفي ذلك قال البخاري رحمه الله: وسمّيت أمّ الكتاب؛ لأنّه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة أمّ القرآن والسبع المثاني؛ وفي ذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: (أمُّ القرآنِ هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ) ([4])

---

[1] – سورة الحجر، آية: ٨٧

[2] – أسباب النزول؛ لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) – نشر دار الكتب العلمية ص٥.

[3] – انظر: ضعيف الجامع الصغير رقم/ ٣٩٤٩.

[4] – انظر: تفسير القرطبي، القرطبي، دار الفكر، ١٠٦/٢

فضائل سورة الفاتحة:

أغلب الأحاديث التي ذكرت أسماء الفاتحة تدل على فضائلها فمن هذه الفضائل:

١- سورة الفاتحة أعظم سور القرآن الكريم وقد تقدم حديث أبي سعيد المعلى عندما قال له رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد... ثم ذكر له أنها سورة الحمد لله رب العالمين وهي السبع المثاني والقرآن العظيم.

٢- لا مثيل لسورة الفاتحة في الكتب المنزلة فقد أخرج أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي بن كعب أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال له: (أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟ ثم أخبره أنها الفاتحة.

٣- سورة الفاتحة نور:

وتقدم الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه... فنزل منه ملك فأتى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال أبشر بنورين قد أُوتيتهمالم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته.

٤- سورة الفاتحة: رقية وعلاج ودواء وشفاء للأسقام المادية والمعنوية، وتقدمت الأحاديث في ذلك، عندما رقى الصحابي اللديغ بالفاتحة، وكذلك الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن خارجة ابن الصلت التميمي عن عمه: أنه أتى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثوق بالحديد، فقال أهله: أعندك ما تداوي به هذا؟ فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين

غدوة وعشية، أجمع بزاقي ثم أتفل فبرأ فأعطاني مائة شاة، فأتيت النبي –صلى الله عليه وسلم– فذكرت ذلك له فقال: كل فمن أكل برقية باطل فقد أكلت برقية حق.

ثالثاً– عدد آيات الفاتحة:

أجمع العلماء على أن فاتحة الكتاب سبع آيات، إلا أنهم اختلفوا في الآية السابعة، فمن جعل البسملة أولى آياتها، قال إن قوله تعالى:﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ آية واحدة وهي السابعة، ومن لم يجعل البسملة آية من الفاتحة قال ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ لآية السادسة و ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ الآية السابعة.

قال الخازن: وهي سبع آيات بالاتفاق، وسبع وعشرون كلمة، ومائة وأربعون حرفاً.([٥])

محور مواضيع السورة: يَدُورُ مِحْوَرُ السُّورَةِ حَوْلَ أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَالعَقِيدَةِ، وَالعِبَادَةِ، وَالتَّشْرِيعِ، وَالاعْتِقَادِ باليَوْمِ الآخِرِ، وَالإيمَانِ بِصِفَاتِ اللَّهِ الحُسْنَى، وَإِفْرَادِهِ بالعِبَادَةِ وَالاسْتِعَانَةِ وَالدُّعَاءِ، وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَلاَ بطَلَبِ الهداية إلى الدِّينِ الحَقِّ وَالصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ بالتَّثْبِيتِ عَلَى الإِيمَانِ وَنَهْجِ سَبِيلِ الصَّالِحِينَ، وَتَجَنُّبِ طَرِيقِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَالإِخْبَارِ عَنْ قِصَصِ الأُمَمِ السَّابِقِينَ، وَالاطِّلاَعِ عَلَى مَعَارِجِ السُّعَدَاءِ وَمَنَازِلِ الأَشْقِيَاءِ، وَالتَّعَبُّدِ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَنَهْيِهِ

سبب نزول السورة: عن أبي ميسرة أن رسول الله محمدﷺ كان إذا برز سمع مناديا يناديه: يا محمد فإذا سمع الصوت انطلق هاربا فقال له ورقة بن نوفل :إذا سمعت النداء فاثبت حتى تسمع ما يقول لك. فلما برز سمع النداء يا محمد فقال: لبيك. قال : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ثم قال قل :الحمد لله رب

[٥] – انظر تفسيره المسمى لباب التأويل ١/١١.

العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. ..حتى فرغ من فاتحة الكتاب وهذا قول علي بن أبي طالب [٦]

فضل السورة: عن ابن عباس قال" :بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺسمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك؛ فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة {البقرة}، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته"[٧] وقال" :ما أنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها. وإنها سبع من المثاني، والقرآن

العظيم الذي أعطيته"[٨] .عن أبي سعيد الخدري قال: " كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت إن سيد الحي سليم وإن نفرنا غيب فهل منكم راق فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية فرقاه فبرأ فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبنا فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي قال لا ما رقيت إلا بأم الكتاب قلنا لا تحدثوا شيئا حتى نأتي أو نسأل النبي ﷺ فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال وما كان يدريه أنها رقية اقسموا واضربوا لي بسهم"[٩].وسورة الفاتحة: تحتوي على خمس وعشرون كلمة وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفا.

٦- أسباب النزول أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي دار الكتب العلمية سنة النشر 1421 :هـ2000 / م رقم الطبعة بدون .

٧- رواه مسلم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب / ١٤٥٦

٨ متفق عليه.

٩ رواه البخاري.

الفصل الثاني
التوجيه النحوي للقراءات القرآنية
في سورة الفاتحة

التوجيه النحوي للقراءات القرآنية في سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

لا بدّ عن الحديث عن التوجيه لغة واصطلاحا ، حتى يكون القارئ ملما به ومن خلاله يدرك المقصد لهذه السورة العظيمة .

التوجيه لغة: أما التوجيه فهو مصدر للفعل وجَّه، وأصله من الوَجه، ووجه الكلام: السبيلُ الذي تقصده به، ويقال في المثل: وَجِّهِ الحَجَر وِجهَةً ماله، أي: ضعه على وجهه اللائق به، ويُضرب لمن لا يدبر الأمر على وجهه الذي ينبغي أن يوجه عليه، وكساء مُوجه، أي: ذو وجهين.[١٠]

التوجيه اصطلاحا: "ماذا يقصد بالتوجيه اصطلاحاً ؟ و بناءً على ما سبق يتأتى مفهوم توجيه القراءات؛ فنراه يدور حول بيان الوجه المقصود من القراءة، أو تلمس الأوجه المحتملة التي يجرى عليها التغاير القرآني في مواضعه، سواء كانت هذه الوجوه –كما سيتضح – نقلية أم عقلية، وهو بذلك المفهوم لا يكاد يختلف عن سابقه كبير اختلاف، سوى أن بعض علمائنا المتأخرين قد آثروا استعماله على مصطلح الاحتجاج، وأظن أن الذي حملهم على ذلك –حسبما يتبادر إلى الذهن – هو شيوعه في مجال الدرس اللغوي، وارتباطه بأكثر من مصدر من مصادره؛ فعمدوا إلى تمييز القراءات من ذلك بمصطلح التوجيه، بل ذهبوا إلى تخصيصه بالبحث في وجوه المعاني المترتبة على اختلاف القراءات.

١٠ - لسان العرب، مادة (وجه)، ج١٣، ص٥٥٥

فالزركشي في كتابه البرهان يجعل النوع الثالث والعشرين من علوم القرآن في (معرفة توجيه القراءات، وتبيين وجه ما ذهب إليه كل قارئ) ويرى أنه "فن جليل" وبه تعرف جلالة المعاني وجزالتها، وقد اعتنى به الأئمة وأفردوا فيه كتباً... وفائدته كما قال الكواشي (ت٦٨٠هـ): أن يكون دليلاً على حسب المدلول عليه أو مرجِّحاً."[١١]

أبدأ بالتوجيه النحوي للقراءات في سورة الفاتحة والبداية ستكون بالبسملة والتي تعد آية بإجماع العلماء[١٢]

(بسم) متعلقة بمحذوف، فعند البصريين المحذوف مبتدأ والجار والمجرور خبره، والتقدير ابتدائي بسم الله، أي كائن باسم الله فالباء متعلقة بالكون والاستقرار. وقال الكوفيون :المحذوف فعل تقديره ابتدأت أو أبدأ فالجار والمجرور في موضع نصب بالمحذوف وحذفت الألف من الخط لكثرة الاستعمال، فلو قلت لاسم الله بركة أو باسم ربك أثبت الألف في الخط، وقيل حذفوا الألف لأنهم حملوه على سم وهى لغة في اسم، فإن قيل: كيف أضيف الاسم إلى الله، والله هو الاسم ؟ قيل: في ذلك ثلاثة أوجه: أحدهما أن الاسم هنا بمعنى التسمية، والتسمية غير الاسم، لأن الاسم هو اللازم للمسمى، والتسمية هو التلفظ بالاسم، والثاني أن في الكلام حذف مضاف تقديره باسم مسمى الله، والثالث أن اسم زيادة، ومن ذلك قوله * :إلى الحول ثم اسم السلام عليكما * وقول الآخر: * داع يناديه باسم الماء * أي السلام عليكما ونناديه بالماء[١٣]

١١- البرهان ، الزركشي ،ج١،ص٤١٩

١٢- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر ،ص٤

١٣ - املاء ما مني به الرحمن، تأليف أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (٥٣٨ - ٦١٦ هـ) الجزء الأول دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م،ص٤

والأصل في الله الإلاه، فألقيت حركة الهمزة على لام المعرفة، ثم سكنت وأدغمت في اللام الثانية ثم فخمت إذا لم يكن قبلها كسرة، ورققت إذا كانت قبلها كسرة، ومنهم من يرققها في كل حال،

والتفخيم في هذا الاسم من خواصه ومما سبق (بسم الله)تكون على الخفض أما (الرحمن الرحيم) صفتان مشتقتان من الرحمة والرحمن من أبنية المبالغة، وفى الرحيم مبالغة أيضا إلا أن فعلانا أبلغ من فعيل، وجرهما على الصفة، والعامل في الصفة هو العامل في الموصوف، وقال الأخفش[14] العامل فيها معنوي وهو كونها تبعا، ويجوز نصبهما على إضمار أعنى ورفعهما على تقدير هو[15] ومما سبق يمكن القول أن هذين الصفتين عدة أوجه: الخفض والنصب والرفع .

سورة الفاتحة: عند الجمهور رفع (الحمد) بالابتداء و (لله (الخبر واللام متعلقة بمحذوف أي واجب أو ثابت، ويقرأ الحمد بالنصب على أنه مصدر فعل محذوف: أي أحمد الحمد، والرفع أجود لأن فيه عموما في المعنى، ويقرأ بكسر الدال إتباعا لكسرة اللام كما قالوا المعيرة ورغيف وهو ضعيف في الآية لأن فيه إتباع الإعراب البناء، وفى ذلك إبطال للإعراب، ويقرأ بضم الدال واللام على إتباع اللام الدال، وهو ضعيف أيضا لأن لام الجر متصل بما بعده منفصل عن الدال، ولا نظير له في حروف الجر المفردة إلا أن من قرأ به فر من الخروج من الضم إلى الكسر وأجراه

١٤- ابن خلكان، وفيات الأعيان ، بيروت، دار صادر ١٩٧٠م ص٥٤٧

١٥- أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (٥٣٨ - ٦١٦ هـ) املاء ما منى به الرحمن دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م،ج١،ص٥

مجرى المتصل، لأنه لا يكاد يستعمل الحمد منفردا عما بعده[١٦] وقد وافقه الفراء في معاني القرآن[١٧]، والرب مصدر رب يرب، ثم جعل صفة كعدل وخصم، وأصله راب وجره على الصفة أو البدل، وقرئ بالنصب على إضمار أعنى، وقيل على النداء، وقرئ بالرفع على إضمار هو (العالمين) جمع تصحيح واحده عالم، والعالم اسم موضوع للجمع ولا واحد له في اللفظ، واشتقاقه من العلم عند من خص العالم بمن يعقل، أو من العلامة عند من جعله لجميع المخلوقات،[١٨] وقد ذكره في كتابه التبيان [١٩]وفى (الرحمن الرحيم) الجر والنصب والرفع، وبكل قرئ على ما ذكرناه في رب . وأضاف أبو حيان رحمه الله (. واختلف في وصل الرحيم بالحمد، فقرأ قوم من الكوفيين بسكون الميم ويقفون عليها ويبتدئون بهمزة مقطوعة، والجمهور على جر الميم ووصل الألف من الحمد. وحكي عن بعض العرب إنه يقرأ الرحيم الحمد بفتح الميم وصلة الألف، كأنك سكنت الميم وقطعت الألف، ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت ولم ترو هذه قراءة عن أحد([٢٠]قوله تعالى (ملك يوم الدين) يقرأ بكسر اللام

١٦- أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (٥٣٨ - ٦١٦ ه) املاء ما منى به الرحمن دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان، ١٣٩٩ ه - ١٩٧٩م،، ج١، ص٤

١٧- الفراء، أبو زكريا، معاني القرآن ،الفراء ، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ،محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ،الدار المصرية للتأليف والترجمة،مصر ،ط١، ج١،ص١

١٨ - أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري ، إملاء ما منى به الرحمن ، دار الكتب العلمية ،ص٤

١٩- المصدر السابق ، ج١ ، ص١٢

٢٠- أبو حيان الأندلسي ، تفسير ا البحر المحيط دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت -١٤٢٢ ه ٢٠٠١ م ط١ ،تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض،ج١،١٢٩

من غير ألف، وهو من عمر ملكه، يقال ملك بين الملك بالضم، وقرئ بإسكان اللام وهو من تخفيف المكسور مثل فخذ وكتف، وإضافته على هذا محضة وهو معرفة، فيكون جره على الصفة أو البدل من الله، ولا حذف فيه على هذا، ويقرأ بالألف والجر، وهو على هذا نكرة، لأن اسم الفاعل إذا أريد به الحال أو الاستقبال لا يتعرف بالإضافة، فعلى هذا يكون جره على البدل لا على الصفة، لأن المعرفة لا توصف بالنكرة، وفى الكلام حذف مفعول تقديره: مالك أمر يوم الدين، أو مالك يوم الدين الأمر، وبالإضافة لي يوم خرج عن الظرفية، لأنه لا يصح فيه تقدير في، لأنها تفصل بين المضاف والمضاف إليه، ويقرأ مالك بالنصب على أن يكون بإضمار أعنى أو حالا، وأجاز قوم أن يكون نداء، ويقرأ بالرفع على إضمار هو أو يكون خبرا للرحمن الرحيم على قراءة من رفع الرحمن، ويقرأ مليك يوم الدين رفعا ونصبا وجرا، ويقرأ ملك يوم الدين على أنه فعل ويوم مفعول أو ظرف ([21]) والدين مصدر دان يدين[22] وفي ذلك يقول الزمخشري:(قرئ: ملك يوم الدين ومالك، ومالك بتخفيف اللام وقرأ ابو حنيفة مالك يوم الدين بلفظ الفعل ونصب اليوم وقرأ أبو هريرة بالنصب وقرأ غيره ملك)[23]. قوله تعالى (إياك) الجمهور على كسرة الهمزة وتشديد الياء، وقرئ شاذا بفتح الهمزة، والأشبه أن يكون لغة مسموعة، وقرئ بكسر الهمزة وتخفيف الياء، والوجه فيه أنه حذف إحدى الياءين لاستثقال التكرير في حرف العلة، وقد جاء ذلك

---

[21]- أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري املاء ما منى به الرحمن ،ج١ ،ص٥

[22]- أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري املاء ما منى به الرحمن ج،١،ص٥

[23]- الزمخشري، الكشاف ، ط١،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٩٥م ج١،ص٢١.

في الشعر، قال الفرزدق: تنظرت نصرا والسماكين أيهما * علي مع الغيث استهلت مواطره وقالوا في أما: أيما، فقلبوا الميم ياء كراهية التضعيف، وإيا عند الخليل وسيبويه اسم مضمر، فأما الكاف فحرف خطاب عند سيبويه لا موضع لها، ولا تكون اسما لأنها لو كانت اسما لكانت إيا مضافة إليها والمضمرات لا تضاف، وعند الخليل هي اسم مضمر أضيفت إيا إليه، لأن إيا تشبه المظهر لتقدمها على الفعل والفاعل ولطولها بكثرة حروفها، وحكى عن العرب: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب. وقال الكوفيون: إياك بكمالها اسم وهذا بعيد، لأن هذا الاسم يختلف آخره بحسب اختلاف المتكلم والمخاطب والغائب فيقال: إياي وإياك وإياه .وقال قوم: الكاف اسم وإيا عماد له وهو حرف، وموضع إياك نصب بنعبد. فإن قيل: إياك خطاب والحمد لله على لفظ الغيبة، فكان الأشبه أن يكون إياه. قيل :عادة العرب الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة. وسيمر بك من ذلك مقدار صالح من القرآن. قوله تعالى (نستعين) الجمهور على فتح النون، وقرئ بكسرها وهى لغة، وأصله نستعون نستفعل من العون فاستقلت الكسرة على الواو فنقلت إلى العين ثم قلبت ياء لسكونها وإنكسار ما قبلها([٢٤]). قوله تعالى (اهدنا) لفظه أمر والأمر مبنى على السكون عند البصريين، ومعرب عند الكوفيين، فحذف الياء عند البصريين علامة السكون الذى هو بناء، وعند الكوفيين، هو علامة الجزم، وهدى يتعدى إلى مفعول بنفسه فأما تعديه إلى مفعول آخر فقد جاء متعديا إليه بنفسه ومنه هذه الآية، وقد جاء متعديا بإلى كقوله

[٢٤]- معاني القرآن ،الفراء ،أبو زكريا ،أحمد يوسف النجاتي ،محمد علي النجار ، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ،الدار المصرية للتأليف والترجمة ،مصر ،ط١، ج١،ص١-٧

تعالى: " هداني ربي إلى صراط مستقيم" ، وجاء متعديا باللام، ومنه قوله تعالى: (الذى هدانا لهذا) ([25]). و (السراط (بالسين هو الأصل لأنه من سرط الشيء إذا بلعه، وسمى الطريق[26] سراطا لجريان الناس فيه كجريان الشيء المبتلع، فمن قرأه بالسين جاء به على الأصل، ومن قرأه بالصاد قلب السين صادا لتجانس الطاء في الإطباق، والسين تشارك الصاد في الصفير والهمس، فلما شاركت الصاد في ذلك قربت منها، فكانت مقاربتها لها مجوزة قلبها إليها لتجانس الطاء في الإطباق، ومن قرأ بالزاي قلب السين زايا، لأن الزاي والسين من حروف الصفير، والزاي أشبه بالطاء لأنهما مجهورتان، ومن أشم الصاد زايا قصد أن يجعلها بين الجهر والإطباق، وأصل (المستقيم) مستقوم ثم عمل فيه ما ذكرنا في نستعين، ومستفعل هنا بمعنى فعيل([27]) : أي السراط القويم وفي المعجم الوسيط (خَطٌّ فِي مُسْتَوىً وَاحِدٍ غَيْرِ مُنْعَرِجٍ).[28]

ويجوز أن يكون بمعنى القائم، أي الثابت، وسراط الثاني بدلا من الأول، وهو بدل الشيء وهما بمعنى واحد وكلاهما معرفة، والذين اسم موصول وصلته أنعمت، والعائد عليه الهاء والميم، والغرض من وضع الذى وصف المعارف بالجمل، لأن الجمل تفسر بالنكرات والنكرة لا توصف بها المعرفة، والألف واللام في الذى زائدتان وتعريفها بالصلة، ألا ترى أن " من " و " ما " معرفتان ولا لام فيهما فدل أن تعرفهما بالصلة. والأصل في الذين اللذيون، لأن واحده الذي، إلا أن ياء الجمع حذفت ياء الأصل لئلا

---

[25] - الأعراف ،آية ٤٣

[26]- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ،مكتبة الشروق الدولية ،سنة النشر ٢٠٠٤م،١رقم الطبعة: ٤ص.

[27]- معاني القرآن ،الفراء ،،ص٧

[28]- المعجم الوسيط ،مجمع اللغة العربية ،ص

يجتمع ساكنان، والذين بالياء في كل حال لأنه اسم مبنى، ومن العرب من يجعله في الرفع بالواو، وفى الجر والنصب بالياء كما جعلوا تثنيته بالألف في الرفع وبالياء في الجر والنصب. وفى الذى خمس لغات: إحداها الذى بلام مفتوحة من غير لام التعريف، وقد قرئ به شاذا، والثانية الذى بسكون الياء، والثالثة بحذفها وإبقاء كسرة الذال، والرابعة حذف الياء وإسكان الذال، والخامسة بياء مشدد([٢٩]) وفي موضع آخر نجد تطابق للآيتين (اهدنا الصراط المستقيم (*) صراط الذين أنعمت عليهم): اهدنا (لفظه أمر، و الأمر مبني على السكون عند البصريين، ومعرب عند الكوفيين، فحذف الياء عند البصريين علامة السكون الذي هو بناء، وعند الكوفيين هو علامة الجزم.

و (هدى) يتعدى إلى مفعول بنفسه، فأما تعديه إلى مفعول آخر فقد جاء متعديا إليه بنفسه ؛ ومنه هذه الآية ؛ وقد جاء متعديا بإلى كقوله تعالى:(هداني ربي إلى صراط مستقيم)[٣٠] وجاء متعديا باللام، ومنه قوله تعالى) : الذي هدانا لهذا[٣١]و: (السراط) بالسين هو الأصل ؛ لأنه من سرط الشيء إذا بلغه، وسمي الطريق سراطا لجريان الناس فيه كجريان الشيء المبتلع.

فمن قرأه بالسين جاء به على الأصل، ومن قرأه بالصاد قلب السين صادا ؛ لتجانس الطاء في الإطباق، والسين تشارك الصاد في الصفير والهمس، فلما شاركت الصاد

[٢٩] –معاني القرآن ،الفراء ،،ص٨

[٣٠]– سورة الأنعام الآية: ١٦١

٣١– سورة الأعراف الآية: ٤٣

في ذلك قربت منها، فكانت مقاربتها لها مجوزة قلبها إليها لتجانس الطاء في الإطباق.[٣٢]

ومن قرأ بالزاي قلب السين زايا؛ لأن الزاي والسين من حروف الصفير، والزاي أشبه بالطاء؛ لأنهما مجهورتان.

ومن أشم الصاد زايا قصد أن يجعلها بين الجهر والإطباق.

وأصل:) المستقيم (مستقوم، ثم عمل فيه ما ذكرنا في " نستعين "، ومستفعل هنا بمعنى فعيل أي السراط القويم. ويجوز أن يكون بمعنى القائم ؛ أي الثابت.

وسراط الثاني بدل من الأول، وهو بدل الشيء من الشيء، وهما بمعنى واحد، وكلاهما معرفة. و(الذين) اسم موصول، وصلتها نعمت، والعائد عليه الهاء والميم[٣٣] قوله تعالى (غير المغضوب) يقرأ بالجر، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها أنه بدل من الذين. والثاني أنه بدل من الهاء والميم في عليهم. والثالث أنه صفة للذين. فإن قلت: الذين معرفة وغير لا يتعرف بالإضافة فلا يصح أن يكون صفة له. ففيه جوابان: أحدهما أن غير إذا وقعت بين متضادين وكانا معرفتين تعرفت بالإضافة كقولك: عجبت من الحركة غير السكون، وكذلك الأمر هنا لأن المنعم عليه والمغضوب عليه متضادان. والجواب الثاني أن الذين قريب من النكرة لأنه لم يقصد به قصد قوم بأعيانهم وغير المغضوب قريبة من المعرفة بالتخصيص الحاصل لها بالإضافة فكل واحد منهما فيه إبهام من وجه واختصاص من وجه. ويقرأ غير بالنصب، وفيه ثلاثة أوجه: أحدهما

٣٢- التبيان في إعراب القرآن أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري دار الفكر سنة النشر: ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م،ج١ ص١٤

٣٣- أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ، التبيان في إعراب القرآن ، ج١، ص١٤

أنه حال من الهاء والميم والعامل فيها أنعمت، ويضعف أن يكون حالا من الذين لأنه مضاف إليه، والصراط لا يصح أن يعمل بنفسه في الحال، وقد قيل إنه ينتصب على الحال من الذين ويعمل فيها معنى الإضافة .والوجه الثاني أنه ينتصب على الاستثناء من الذين أو من الهاء والميم .والثالث أنه ينتصب بإضمار أعنى والمغضوب مفعول من غضب عليه.([٣٤]) وهو لازم والقائم مقام الفاعل عليهم، والتقدير غير الفريق المغضوب، ولا ضمير في المغضوب لقيام الجار والمجرور مقام الفاعل

ولذلك لم يجمع فيقال الفريق المغضوبين عليهم، لأن اسم الفاعل والمفعول إذا عمل فيما بعده لم يجمع جمع السلامة (ولا الضالين) " لا " زائدة عند البصريين للتوكيد، وعند الكوفيين هي بمعنى غير، كما قالوا: جئت بلا شئ فأدخلوا عليها حرف الجر فيكون لها حكم غير. وأجاب البصريون عن هذا بأن " لا " دخلت للمعنى فتخطاها العامل كما يتخطى الألف واللام والجمهور على ترك الهمز في الضالين: وقرأ أيوب السختياني بهمزة مفتوحة وهى لغة فاشية في العرب في كل ألف وقع بعدها حرف مشدد نحو: ضال ودابة وجان، والعلة في ذلك أنه قلب الألف همزة لتصح حركتها لئلا يجمع بين ساكنين([٣٥])

[٣٤]- أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري املاء ما منى به الرحمن ج،١،ص٨

٣٥- المصدر السابق،ج١،ص ٨

الفصل الثالث
إعراب سورة الفاتحة

إعراب سورة الفاتحة

في هذا الفصل لا بدّ من التركيز على إعراب هذه السورة الكريمة حتى نستطيع توضيح الجوانب التي لها علاقة بالمعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اللغة :(اسم) اختلف علماء اللغة في اشتقاق الاسم فذهب البصريّون إلى أنه من السّموّ وهو العلوّ وذهب الكوفيون إلى أنه مشتق من السّمة وهي العلامة وكلاهما صحيح من جهة المعنى وفيه خمس لغات :

اسم بكسر الهمزة ، واسم بضمها ، وسم بكسر السين ، وسم بضمها ، وسمى بوزن هدى ، هذا والاسم هو واحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة تفاديا للابتداء بالسّاكن لسلامة لغتهم من كل لكنة وإذا وقعت في درج الكلام لم تفتقر إلى شيء.

(الله) علم لا يطلق إلا على المعبود بحقّ خاص لا يشركه فيه غيره وهو مرتجل غير مشتق عند الأكثرين واليه ذهب سيبويه في أحد قوليه فلا يجوز حذف الألف واللام منه وقيل : هو مشتق وإليه ذهب سيبويه أيضا ولهم في اشتقاقه قولان :

أ . ان أصله إلاه على وزن فعال من قولهم : أله الرّجل يأله إلاهة أي عبد عبادة ثم حذفوا الهمزة تخفيفا لكثرة وروده واستعماله ثم أدخلت الألف واللام للتعظيم ودفع الشّيوع الذي ذهبوا إليه من تسمية أصنامهم وما يعبدونه آلهة من دون الله.

ب . أن أصله لاه ثم أدخلت الألف واللام عليه واشتقاقه من لاه يليه إذا تستر كأنّه ، سبحانه ، يسمّى بذلك لاستتاره واحتجابه عن إدراك الأبصار وما أجمل قول الشريف

الرّضي الشاعر :«تاهت العقلاء في ذاته تعالى وصفاته ، لاحتجابها بأنوار العظمة.([36])

وتحيّروا أيضا في لفظ الجلالة كأنه انعكس إليه من تلك الأنوار أشعة بهرت أعين المستبصرين ، فاختلفوا : أسريانيّ هو أم عربي؟ اسم أو صفة؟ مشتقّ وممّ اشتقاقه؟ وما أصله؟ أو غير مشتق؟ علم أو غير علم؟». (الرَّحْمنِ) : صيغة فعلان في اللغة تدل على وصف فعليّ فيه معنى المبالغة للصفات الطارئة كعطشان وغرثان. (الرَّحِيمِ) صيغة فعيل تدل على وصف فعليّ فيه معنى المبالغة للصفات الدائمة الثابتة ولهذا لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر.

الإعراب :

(بِسْمِ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف والباء هنا للاستعانة أو للإلصاق ، وتقدير المحذوف أبتديء فالجار والمجرور في محل نصب مفعول به مقدم أو ابتدائي فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف وكلاهما جيد و (اللهِ) مضاف إليه و (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) صفتان لله تعالى وجملة البسملة ابتدائية لا محلّ لها من الإعراب.

البلاغة :

في البسملة طائفة من فنون البلاغة :

أ . الأولى في متعلق بسم الله أن يكون فعلا مضارعا لأنه الأصل في العمل والتمسّك بالأصل أولى ولأنه يفيد التجدّد الاستمراري وإنما حذف لكثرة دوران المتعلق به على

---

[36] – إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محي الدين الدرويش ، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٤ ، ج١ ، ص ٨

الألسنة وإذا كان المتعلق به اسما فإنه يفيد الديمومة والثبوت كأنما الابتداء باسم الله حتم دائم في كل ما نمارسه من عمل ونردده من قول.

ب . الإيجاز بإضافة العام إلى الخاص ويسمى إيجاز قصر.

ح . إذا جعلنا الباء للاستعانة فيكون في الكلام استعارة مكنية تبعية لتشبيهها بارتباط يصل بين المستعين والمستعان به وإذا جعلنا الباء للإلصاق فيكون في الكلام مجاز علاقته المحلية نحو مررت بزيد أي يمكان يقرب منه لا يزيد نفسه.

الفوائد :

في البسملة فوائد لا يجوز الجهل بها ومنها :

آ . اعلم أن البسملة آية من سورة الحمد وآية من أوائل كل سورة عند الشافعي وليست آية في كل ذلك عند مالك وعند أبي حنيفة وأحمد بن حنبل هي آية من أول الفاتحة وليست آية في غير ذلك ، والاحتجاج لذلك مبسوط في كتب الفقه والتفسير فارجع إليها.

ب . لم يوصف بالرحمن في العربية بالألف واللام إلا الله تعالى ، وقد نعتت العرب مسيلمة الكذاب به مضافا فقالوا : رحمان اليمامة.

قال شاعر منهم يمدح مسيلمة :

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

ح . تكتب بسم الله بغير ألف في البسملة خاصة استغناء عنها بباء الاستعانة بخلاف قوله تعالى : «اقرأ باسم ربك الذي خلق».

د . تحذف الألف من الرحمن لدخول الألف واللام عليها.

ه . يقال لمن قال : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) : مبسمل وهو ضرب من النحت اللغوي وقد ورد ذلك في شعر لعمر بن أبي ربيعة :

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

ومثل بسمل حوقل إذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله وهيلل إذا قال : لا إله إلا الله وسبحل إذا قال : سبحان الله وحمدل إذا قال : الحمد لله وحيصل وحيعل إذا قال : حي على الصلاة وحي على الفلاح وجعفل إذا قال : جعلت فداك.

هذا والنحت عند العرب خاص بالنسبة أي أنهم يأخذون اسمين فينحتون منهما اسما واحدا فينسبون إليه كقولهم : حضرميّ وعبقسيّ وعبشيّ نسبة إلى حضرموت وعبد القيس وعبد شمس على أن الفراء ذكر عن بعض العرب : معي عشرة فأحد هنّ لي أي صيرهنّ أحد عشر ، وقال الفراء : معنى اللهمّ : يا الله أمّنا بخير أي اقصدنا بخير فكثرت في كلام العرب ونحت العرب من اسمين فقيل عن الصّلدم إنه من الصّلد والصّدم ومنه بلحارث لبني الحارث ولعل الحقّلد وهو السّيء الخلق والثقيل الروح منحوت من الحقد والثقل ونحتوا من فعل وحرف فقالوا : الأزليّ وهو منحوت من لم يزل ، ونحتوا من اسم وحرف فقالوا : من من لا شيء تلاشى ونحتوا من حرفين فقال الخليل : إن كلمة (لن) منحوتة من لا وأن وانها تضمّنت بعد تركيبها معنى لم يكن في أصليها مجتمعين وانما أوردنا هذه الأقوال ، لا لأنها قاطعة فهي موضع خلاف كما رأيت ، ولكننا استأنسنا بها لتتوافر هم المشتغلين باللّغة على النحت ففيه ثروة جديدة للغتنا وتسهيل لكثير من التعابير الحديثة التي نفتقر إليها ، فالنحت من أبرز الظواهر في اللغات الأجنبية الحديثة بفضل ما

يلحق بالأصل من لواحق سابقة أو لاحقة ، أو بفضل ما يعطونه للغتهم من مرونة حين يؤلفون كلمة جديدة من اسمين أو صفتين أو فعلين حى إذا تألفت الكلمة ، وأعطت مدلولا خاصا سارت على الأفواه كل مسير ، ومن أمثلة ذلك في اللغة الفرنسية قولهم المؤلف من فعل واسم eisse . niam للمنديل المعد لتنشيف الأيدي

وقولهم المؤلف من فعلين : zessial . ressap للإذن المكتوب للمرور وقولهم المؤلف من اسمين : sehcnomxuoesio لنوع من طير صغير وغيرها.

و. كانت قريش قبل البعثة تكتب في أول كتبها : «باسمك اللهمّ» وكان أميّة بن أبي الصّلت أول من كتب باسمك اللهم إلى أن جاء الإسلام ونزلت (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) ، وروى محمد بن سعد في طبقاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب كما تكتب قريش

: باسمك اللهم حتى نزل قوله تعالى : «وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها»([37])

فكتب : باسم الله حتى نزل قوله تعالى : «قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ» فكتب باسم الله الرحمن حتى نزل قوله تعالى :

«إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» فكتب : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ).

اللغة :

(الْحَمْدُ) : الثناء بالجميل والنداء عليه باللسان ، والشكر هو الثناء على النعمة خاصة فبينهما عموم وخصوص (رَبِّ) الرب : هو السيّد والمالك والثّابت والمعبود والمصلح وزاد بعضهم الصّاحب مستدلا بقوله :

فدنا له رب الكلاب بكفّه بيض رهاف ريشهنّ مقزّع

والمربي : الذي يسوس من يربيه ويدبره فهو اسم فاعل حذفت ألفه كما قيل : بارّ وبرّ وقيل : مصدر وصف به ويقيّد بالإضافة نحو رب الدّار من ربّه يربّه وقيل : هو صفة مشبّهة مصوغة من فعل متعدّ فلا بد من تقديره لازما بالنقل الى فعل

---

[37] – إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محي الدين الدرويش ، ١/١٠،٩ ، ١١

بالضم (الْعالَمِينَ) جمع عالم بفتح اللام وجمع جمع المذكر السالم العاقل تغليبا والمراد به جميع الكائنات ولذلك أدرجه النّحاة فيما ألحق بجمع المذكر والنّكتة فيه هي أن هذا اللفظ لا يطلق عند العرب على كل كائن وموجود كالحجر والتراب وإنما يطلقونه على كل جملة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل الذي جمعت جمعه وان لم تكن منه فيقال : عالم الإنسان ، وعالم الحيوان وعالم النبات والعالم لا واحد له من لفظه ولا من غير لفظه لأنه جمع لأشياء مختلفة (الدِّينِ) : الجزاء ويوم الدّين : يوم الجزاء ومنه قول العرب : «كما تدين تدان» وقول الشاعر :

ولم يبق سوى العدوان   دناهم كما دانوا

والدّين ايضا : الطاعة كقوله تعالى «في دين الملك» ، والدّين أيضا : الملّة قال المثقّب ([38])

العبديّ :تقول إذا درأت لها وضيني   أهذا دينه أبدا وديني

(الصِّراطَ) : الطّريق الواضح والمنهاج ، قال جرير :

أمير المؤمنين على صراط   إذا اعوجّ الموارد مستقيم

وفي الصراط أربع لغات : السّراط بالسّين من سرط الشيء إذا بلعه وسمي الطريق سراطا لجريان الناس فيه كما يجري الشيء المبتلع والصراط وبالزاي خالصة وبإشمام الصاد الزاي وكل هذه اللغات قد قرئ به ويذكّر ويؤنّث وتذكيره أكثر.

الاعراب :

(الْحَمْدُ) مبتدأ (لِلَّهِ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (رَبِّ) : صفة لله أو بدل منه (الْعالَمِينَ) مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة لأنه ملحق

---

[38] - المصدر السابق ، ١٢/١

بجمع المذكّر السالم (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) صفتان لله تعالى ايضا (مالِكِ) صفة رابعة لله وقرئ ملك وبينهما فرق دقيق وهو أن المالك هو ذو الملك بكسر الميم والملك ذو الملك بضمّها قال أهل النحو : إنّ ملكا أمدح من مالك وذلك أنّ المالك قد يكون غير ملك ولا يكون الملك إلا مالكا وجمع الملك أملاك وملوك وجمع المالك ملاك ومالكون (يَوْمِ الدِّينِ) مضاف إليه (إِيَّاكَ) ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدّم للاختصاص (نَعْبُدُ) فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا تقديره نحن (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) عطف على إياك نعبد ونستعين فعل مضارع مرفوع وهو معتلّ أجوف والأصل فيه نستعون فاستثقلت الكسرة على الواو فنقلت الى العين فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فصار نستعين (اهْدِنَا) فعل أمر مبني على حذف العلّة وهو هنا بمعنى الدّعاء ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا تقديره أنت (الصِّراطَ) مفعول به ثان([٣٩])

أو منصوب بنزع الخافض لأنّ هدى لا تتعدى إلا الى مفعول واحد وتتعدى الى الثاني باللام كقوله تعالى : «يهدي للتي هي أقوم» أو بإلى كقوله تعالى «وإنك لتهدى الى صراط مستقيم» ولكن غلب عليها الاتّساع فعداها بعضهم إلى اثنين وقد نظم بعض الظرفاء أبياتا ضمّنها الأفعال التي تتعدى الى واحد والى الثاني بحرف جر وهي :

تعدى من الافعال طورا بنفسه وحينا بحرف الجر للثان ما ترى
دعا في الندا سمّى كذا كنى وزوجه واستغفر اختار غيرا
أمرت صدقت الوعد كلت وزنته عفا وهدى منّى كذا سأل اذكرا

٣٩ – نفس المصدر ، ١/ ١٣، ١٤

ومجموعها ستة عشر فعلا (الْمُسْتَقِيمَ) صفة للصراط وهو معتلّ وعين الفعل فيه واو والأصل مستقوم فاستثقلت الكسرة على الواو فنقلت الى القاف فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها (صِراطَ) بدل مطابق من الصراط (الَّذِينَ) اسم موصول مضاف اليه في محل جر (أَنْعَمْتَ) فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك والتاء ضمير متصل في محل رفع فاعل وجملة أنعمت لا محل لها من الاعراب لأنها صلة الموصول (عَلَيْهِمْ) جار ومجرور متعلقان بأنعمت (غَيْرِ) بدل من الضّمير في عليهم أو من الذين أو نعت للذين وسيأتي بحث مسهب عن غير في باب الفوائد (الْمَغْضُوبِ) مضاف اليه (عَلَيْهِمْ) جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل للمغضوب لأنه اسم مفعول (وَلَا) الواو حرف عطف ولا زائدة لتأكيد معنى النفي وهو ما في غير من معنى النفي وهذه الزيادة مطّردة (الضَّالِّينَ) معطوفة على المغضوب عليهم مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم.

البلاغة :

اشتملت هذه السورة ، على قصرها ، على أفانين متعددة من البلاغة ندرجها فيما يلي:

١ . جملة الحمد لله خبر لكنها استعملت لإنشاء الحمد وفائدة الجملة الاسمية ديمومة الحمد واستمراره وثباته.

٢ . في قوله إياك نعبد وإياك نستعين فنّ التّقديم فقد قدّم الضمير لحصر العبادة والاستعانة بالله وحده ، وقدمت العبادة على الاستعانة لأن الاستعانة ثمرتها وإعادة إياك مع الفعل الثاني تفيد أن كلّا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات فلا يستلزم كل منهما الآخر ولأن الكاف التي مع إيّا هي الكاف التي كانت تتصل بالفعل أعني بقوله نعبد لو كانت مؤخرة بعد الفعل وهي كناية عن اسم المخاطب المنصوب بالفعل فكثّرت بإيّا متقدمة وكان الأفصح إعادتها مع كل فعل.

٣ . وفي قوله لله فن الاختصاص للدلالة على أن جميع المحامد مختصة به وكذلك بالإضافة في قوله مالك يوم الدين لزوال المالكين والأملاك عن سواه في ذلك اليوم.

٤ . وفي هذه السورة فن الالتفات من لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب ومن لفظ الخطاب الى لفظ الغيبة والغرض من هذا الفن التّطرية لنشاط الذهن جريا على أساليبهم ، ولأنه لما أثنى على الله بما هو أهل له وأجرى عليه تلك الصفات العظيمة ساغ له أن يطلب الاستعانة منه بعد أن مهد لذلك بما يبرر المطالبة وهو ، تعالى ، خليق بالاستجابة ، وللأشعار بأن اولى ما يلجأ اليه العباد لطلب ما يحتاجون اليه هو عبادته تعالى والاعتراف له بصفات الألوهية ، البالغة ، وقال «صراط

الذين أنعمت عليهم» فأصرح الخطاب لما ذكر النّعمة ثم قال : غير المغضوب عليهم فزوى لفظ الغضب عنه تحنّنا ولطفا وهذا غاية ما يصل اليه البيان ، وهذه مراتب الالتفات في هذه السورة :

أ . عدل عن الغيبة الى الخطاب بقوله : إياك نعبد وإياك نستعين بعد قوله : الحمد لله رب العالمين لأن الحمد دون العبادة في المرتبة ألا تراك تحسد نظيرك ولا تعبده فلما كانت الحال بهذه المثابة استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر ولم يقل الحمد لك.

ب . ولما صار الى العبادة وهي قصارى الطاعات قال : «إياك نعبد وإياك نستعين» فخاطب بالعبادة إصراحا بها ، وتقرّبا منه عزّ وجلّ بالانتهاء الى عدد محدود منها.

ج . وعلى نحو من ذلك جاء آخر السّورة فقال : «صراط الذين أنعمت عليهم» فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ثم قال : «غير المغضوب عليهم عطفا على الأول ، لأن الأول موضع التقرّب من الله بذكر نعمه وآلائه فلما صار إلى ذكر الغضب جاء

باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب فأسند إليه النعمة لفظا وزوى عنه لفظ الغضب تحنّنا ولطفا.

د . وأتى بنون الجمع في قوله : «نعبد» و «نستعين» والمتكلم واحد لأنه ورد في الشّريعة أنه من باع أجناسا مختلفة صفقة واحدة ثم ظهر للمشتري في بعضها عيب فهو مخيّر بين ردّ الجميع أو إمساكه وليس له تبعيض الصّفقة ، بردّ المعيب وإبقاء السّليم ، وهنا لما رأى العابد أن عبادته ناقصة معيبة لم يعرضها على الله مفردة بل جنح الى ضمّ عبادة جميع العابدين إليها وعرض الجميع صفقة كاملة راجيا قبول عبادته في ضمنها لأنّ الجميع لا يردّ البتّة ، إذ بعضه مقبول

وردّ المعيب ، وابقاء السليم تبعيض للصفقة وقد نهى سبحانه عباده عنه ، وهو لا يليق بكرمه العظيم ، وفضله العميم فبقي قبول الجميع.

٥ . وعلى ذكر استهلال القرآن بالفاتحة نذكر هذا الفنّ في الفاتحة ، وهو براعة الاستهلال ، وهو من ارقّ فنون البلاغة وأرشقها ، وحدّه أن يبتدىء المتكلم كلامه بما يشير الى الغرض المقصود من غير تصريح بل بإشارة لطيفة ، وإيماءة بعيدة أو قريبة ، والاستهلال في الأصل : هو رفع الصوت ، وسمي الهلال هلالا لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته ومن أمثلته في الشعر قول أبي تمام في مطلع قصيدته :«فتح عمورية» :

السّيف أصدق أنباء من الكتب   في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعب

فقد استهلّ قصيدته بذكر السيف وفيه إيماءة قريبة جدا الى الموضوع الذي نظمت القصيدة بصدده وقد اشتهر ابو الطيب ببراعة مطالعه ومن روائعها قوله :

أتراها لكثرة العشّاق   تحسب الدّمع خلقة في المآقي

فقد ألمع الى موضوع قصيدته وهو الغزل برشاقة زادها ابتكار المعنى في حسبان الدمع خلقة في المآقي حسنا وجمالا.

٦ . الاستعارة التّصريحيّة في قوله : «اهدنا الصراط المستقيم» فقد شبه الدين الحق بالصراط المستقيم الذي ليس به أدقّ انحراف قد يخرجه عن حدود الاستقامة لأن الخط المستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين ووجه الشبه بينهما أن الله سبحانه وإن كان متعاليا عن

الأمكنة لكن العبد الطالب الوصول لا بد له من قطع المسافات ، ومس الآفات ، ليكرم الوصول والموافاة.

٧ . التفسير بعد الإبهام وذلك في قوله تعالى : (صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)».

٨ . التسجيع في الرحيم والمستقيم وفي «نستعين» و «الضالين» والتسجيع هو اتفاق الكلمتين في الوزن والرّويّ.

الفوائد :

انطوت هذه السورة على فوائد لا تحصى وسنورد ما تهم معرفته منها :

١ . الألف واللام في الحمد للجنس على الأصح لأن حقيقة المحامد ثابتة لله تعالى.

٢ . وسميت هذه السورة «الفاتحة» لأنها أول القرآن وبراعة استهلاله وتسمى أمّ الكتاب لانطوائها على المثل السامية وهي مكية على الأصح ومن أسمائها السبع المثاني والوافية ، والكافية والشافية ، والرّقية ، والكنز والأساس وغيرها.

٣ . غير : لفظ غير مذكر مفرد أبدا إلا أنه إذا أريد به مؤنّث جاز تأنيث فعله المسند اليه تقول قامت غير هند وأنت تعني امرأة وهي في الأصل صفة بمعنى اسم الفاعل وهو مغاير ولذلك لا تتعرف بالإضافة ، وقد يستثنى بها حملا على إلّا كما يوصف

بإلا حملا عليها وهي من الألفاظ الملازمة للإضافة لفظا أو تقديرا فإدخال الألف واللام عليها خطأ.

٤ . آخر الفاتحة «ولا الضّالّين» وأما لفظ آمين فليس منها ولا من القرآن مطلقا وهو اسم بمعنى استجب ويسنّ ختم الفاتحة به وفيه لغتان : المدّ والتقصير قال ابو نواس في المد :

صلى الإله على لوط وشيعته أبا عبيدة قل بالله : آمينا

وقال آخر في القصر :

تباعد مني فطحل إذ دعوته أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

٥ . قد يقال : إن المؤمنين مهتدون فما معنى طلبها؟ والجواب ان المطلوب هو الثبات على الهدى أو زيادته وليس في كون بعض الناس لم يهتدوا ما يخرجه عن أن يكون هدى فالشمس شمس وإن لم يرها الضّرير ، والعسل عسل ، وان لم يجد طعمه المرور ، فالخيبة كل الخيبة لمن عطش والماء زاخر ، ولمن بقي في الظلمة والبدر زاهر ، وخبث والطّيب حاضر.

٦ . الأرجح أن الفاتحة هي أول سورة كاملة نزلت وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بجعلها أول القرآن وانعقد على ذلك الإجماع ونزول أول سورة العلق وهو «اقرأ باسم ربك الذي خلق» يعتبر بمثابة تمهيد للوحي المجمل والمفصّل فلا ينافي كونها أول سورة من القرآن وذكر السيوطي في الإتقان([٤٠]) : أن أول ما نزل من آي القرآن اقرأ باسم ربك ، ويا أيها المدثر وسورة الفاتحة.([٤١])

---

[٤٠] – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، تحقيق : مركز الدراسات القرآنية ، ٦٠/١

[٤١] – إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محي الدين الدرويش ، ١٥/١–١٩

حديث الإمام ابن عرفة عن البسملة سورة الفاتحة

{بِسْمِ اللهِ الرحمن الرَّحِيمِ} :قال ابن رشد في البيان (في رسم نذر سنة) : لم يختلف قول مالك: إنّها لا تقرأ في الفريضة لا في أوّل الحمد، ولا في (أول) السورة التي بعدها لأنها ليست آية منها. (وليست) من القرآن إلا في سورة النمل: وإنما ثبت في المصحف الاستفتاح بها.

قال: ويتحصل في قراءتها في أول الحمد في الفريضة أربعة (وجوه) :

قراءتها للشافعي – وكراهتها لمالك – واستحبابها لمحمد ابن مسلمة – والرابع قراءتها سرّا استحبابا –. وأما النافلة فلمالك فيها في الحمد قولان، وله فيما عدا الحمد ثلاثة، فله في هذه الرواية القراءة، وله في رواية أشهب عنه عدمها إلا أن يقرأ القرآن في صلاته عرضا، وفي المدونة أنّه يخيّر.

قال القاضي عماد الدين: ذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنها ليست آية من الفاتحة ولا من أول كل سورة وذهب الشافعي وجماعة إلى أنها آية من الفاتحة وعنه في كونها آية من (أول) كل سورة قولان: ((فمن أصحابه من حمل القولين على أنها من القرآن في أول كل سورة، ومنهم من حملها على أنها هل هي آية برأسها في أول كل سورة أو هي مع كل آية من أول كل سورة آية؟ ونقل السهيلي)) في الروض الأنف (عن) داود وأبي حنيفة أنها آية مقترنة مع السورة ([٤٢])

ابن عرفة: قيل البسملة آية من كل سورة.

---

[٤٢] – تفسير الإمام ابن عرفة ، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله ، المحقق: د. حسن المناعي الناشر: مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس الطبعة: الأولى، ١٩٨٦ م ، ج١ ، ص٦٩ ،٧٠

فقال الغزالي في المستصفى: معناه أنها آية مع كل سورة وليست جزءا من كل سورة. وقال غيره: معناه أنها آية أي جزء من كل سورة.

وورد في الحديث عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها: (ما كنا نعلم تمام السورة إلا بالبسملة) فظاهره (أنها) تكرر إنزالها مع كل سورة مثل {فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} وظاهر غيره من الأحاديث أنه لم يتكَرر فإذا قلنا: إنها مع أول كل سورة فكيف (تصح) قراءة ورش بإسقاطها. قال: لكن يجاب بما (قال) ابن الحاجب بتعارض الشبهات: أي أن كل واحد من الخصمين يرى أن ما أتى به خصمه شبهة أعني دليلا باطلا وهما قويان فتعارضت الشبهات.

قال ابن عرفة: ولا بد من زيادة ضميمة أخرى وهي الإجماع على أنها قرآن من حيث الجملة، فلذلك صح التعارض.

قال بعضهم: والنافي هنا دليله أقوى، وظاهر كلام ابن عطية في آخر سورة الحمد (أنّ عدد آي السور قياسي لا سماعي) لأنّه قال: أجمع الناس على أنّ (عدد) آي الحمد سبع. (ربّ) العَالمين آية – الرّحْمَان الرحِيمِ آية – (مَالِكِ يَوْمِ) الدّينِ آية – نَسْتَعينُ آية – أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ آية – وَلاَ الضّالّينَ آية.

ونص الغزالي (في المستصفى) على أنه مسموع وكذلك قال الزمخشري في أول سورة البقرة في تفسير قوله: الم.([٤٣])

قال الزمخشري: وذكر الزجاج أنه يفخم (لاَمَهُ) وعلى ذلك العرب كلهم وإطباقهم عليه دليل على أنهم ورثوه كابرا عن كابر.

قال ابن عرفة: إنما يفخم في الرفع، والنصب أما الخفض فلا

---

[٤٣] – تفسير الإمام ابن عرفة ، محمد بن محمد ابن عرفة ، ٧١/١، ٧٢ ٧٣

قال ابن عرفة: وكان الفقيه أبو عبد الله محمد بن سعيد (بن عثمان) بن أيوب (الهزميري) يحكي عن علماء الشافعية بالمشرق أنهم يقسمون البسملة ثلاثة أقسام: قسم هي فيه آية في أول الفاتحة، وقسم هي فيه بعض آية، وذلك في (سورة) النمل، وقسم بعضها فيه آية، وهو: {الرحمن الرَّحِيمِ} .

{بِسْمِ اللهِ} :إما متعلق بفعل أو اسم وقدّره الزمخشري (في) «بسم الله أقرأ وأتلو» وقدره ابن عطية: بِسم الله أبتدئ.

قال (ابن عرفة) : وكان الشيوخ يستصوبون تقدير الزمخشري، فإنه يجعل (قراءته) من أولها إلى آخرها مصاحبة لاسم الله تعالى.

وقد قال الشيخ عز الدين في قواعده: في قول الإنسان عند الأكل {بِسْمِ اللهِ} معناه: آكل باسم الله، وليس معناه: أبدأ باسم الله، ولهذا كانوا ينتقدون على الشاطبي في قوله: في (النّظم) أولا «وهلا قال» نظمت باسم الله (في الذكر أولا «) . (حتى تكون التسمية مصاحبة له في جميع نظمه)

فإن قلت: لِمَ قدر الفعل متأخرا؟

فالجواب: (إنّه إنما) قدره كذلك ليفيد الاختصاص لأنهم كانوا يقولون: واللاّت والعزى ويبدؤون بآلهتهم، قُدّم اسم الله هنا (للتوجيه والحصر) كما في إياك نعبد.

وابن أبي الربيع وغيره كانوا يقولون: إنّما قدم بِسْمِ الله (هنا) للاهتمام به.([٤٤])

قوله تعالى: {الرحمن الرَّحِيمِ} :إن قلت: لِمَ قدم الوصف بالرّحمان مع أنه أبلغ على الوصف بالرحيم فيلزم أن يكون تأكيدا للأقوى بالأضعف.

(فأجيب) (بوجهين) :

[٤٤] – تفسير الإمام ابن عرفة ، محمد بن محمد ابن عرفة ، ٧٣/١، ٧٤، ٧٥

الأول: الرّحمان لما كان خاصا بالله تعالى جرى مجرى (الأسماء) الأعلام التي تلي العوامل فقدم على الرحيم.

(الثاني) : إن الرّحمان دال على جلائل النعم والرّحيم على دقائقها. قاله الزمخشري.

قال ابن عرفة: وكان (يسبق) لنا تقريره بأنّهما يختلفان (اعتبار) المتعلق، فالرحمة قسمان لأنّ الرحمة بالإنقاذ من الموت أشد من الرّحمة بإزالة شوكة، فقد يرحم الإنسان عَدُوّهُ بالإنقاذ من الموت ولا تطيب نفسه أن يرحمه بإزالة شوكة تؤلمه في (بدنه) (فتقديم) الرّحمة الأُولى لا يستلزم هذه بوجه.

قلت: وقرر ابن عرفة لنا في الختمة الثانية السؤال المتقدم: بأن ثبوت الأخص يستلزم ثبوت الأعم ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص (فيبدأ) في الثبوت بالأعم، ثم بالأخص وفي النفي على العكس ورَحمان أخص من رحيم.

وقرر لنا جوابه بأن الرحمان دال على كثير النّعم بالمطابقة وعلى دقائقها بالالتزام ودلالة المطابقة أقوى من دلالة الالتزام فذكر الرحيم بعده ليدل على دقائق النعم بالمطابقة.

وإليه أشار الزمخشري بقوله: والرحيم أتى به (كالتّتمة) ليتناول ما دق منها.

ولما (رأى) ، وذكر أن الرّحْمَانَ أبلغ لكونه أكثر حروفا قال: وهو من الصفات الغالبة كالدّبران (والعرب) لم (تستعمله) في غير الله أما قول بني حنيفة في (مسيلمة) الكذاب: رحمان اليَمامة. وقول شاعرهم:

وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا (فباب) من تعنتهم في كفرهم [٤٥]

---

[٤٥] - تفسير الإمام ابن عرفة ، محمد بن محمد ابن عرفة ، ١/٧٦- ٨٠

قال ابن عرفة: هو لا يحتاج إليه، وكان (يظهر) لنا الجواب عنه بأن رَحْمانا في قولهم: رحمان اليمامة (استعمل مضافا) ورحمانا في البيت منكرا.

وأما الرحمان المعرّف بالألف واللام فخاص بالله لم يستعمل في غيره (فانتفى) السؤال.

وكذا نص إمام الحرمين في الإرشاد خلافا (للفاسي)

في شرح الشاطبية ، فإنه نص على أن المختصّ بالله مجموع الرّحْمَانِ الرّحِيم ونحوه في أسئلة ابن السيد البطليوسي.

قلت: ونقل لي بعضهم عن القاضي أبي عبد الله بن عبد السلام أنه أجاب عن السؤال المتقدم بوجوه:

أحدها: الجواب المتقدم: أتى بالرحيم على سبيل التتمة، وقد حصل الغرض بذكر الرّحْمَانِ وفائدته تحقق دخول ما يتوهم خروجه.

الثاني: مراعاة الفواصل، عند من يرى أنها من الفاتحة.

الثالث: أن الرّحمان يستلزم الرّحيم لكنه ذكر ليدل عليه مطابقة.

قال: وأجاب ابن أبي الربيع في شرح الإيضاح بأن الرّحمان كثر استعماله حتى عُومل معاملة العلم بخلاف الرّحيم فإنه لم يخرج عن كونه صفة.

قال: أو تقول إنها ليست للمبالغة.

وقول الزمخشري: إن العرب لا تزيد حرفا إلا لمعنى ممنوع، (وسند) المنع قولهم في حذر وبطر وأشد إنها أبلغ من حاذر وباطر وأشد.

قلت: وأجاب بعض النحاة المعاصرين بأن حذر ناب مناب محذور، ومحذور أكثر حروفا من حاذر بخلاف حاذر، فإنه لم ينب مناب شيء (حسبما) نص عليه ابن عصفور في (مقربه) في باب الأمثلة.

قلت: وأجاب ابن عرفة: بأنّ ذلك فيما عدل فيه عن الأصل والقياس إلى غيره كحذر وحاذر فإن القياس في اسم الفاعل منه أن يكون على وزن فاعل (فإنما) عدل عن ذلك لمعنى وغرض زائد، وهو إرادة المبالغة، وأما الذي لم يعدل فيه عن الأصل كرحمان ورحيم فنقول الأكثر حروفا (أبلغ) ولهذا (قرر) القاضي العماد (رحمان) أبلغ. قال: ورحمان ورحيم كلاهما معدولان وحذر معه كذلك بخلاف حاذر فما عدل إلا للمبالغة.

واستشكل الغزالي (في الإحياء) قولهم: أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ مع أن الكفار في جهنم لم تصلهم رحمة بوجه، وهنالك قال: ما في الإمكان (أبدع) مما كان. وانتقدها الناس عليه.

وأجاب ابن عرفة: عن الإشكال بأن ذلك باعتبار مراعاة جميع الصفات لله تعالى لأن من صفاته – شديد العقاب – وذلك صادق بعذاب أهل النَار ونعيم أهل الجنة. فرحمته (هي) أشد الرحمة، وعقابه هو أشد العقاب.

وعادتهم يخطئون الغزالي في هذه المسألة، ويقولون: كل عذاب فالعقل يجوز أن يكون أشد منه في الوجود، وكل نعيم فالعقل يجوز أن يكون هناك أحسن منه.

قال الزمخشري: فإن قلت ما معنى وصفه (بالرحمة ومعناها العطف والحنو ومنه) الرّحم لانعطافها على ما فيها. قلت: هو مجاز على إنعامه على عباده. قال ابن عرفة: قالوا كل مجاز لا بد له من حقيقة الاّ هذا فإن الرحمة هي العطف (والحنو) ، وذلك (ما هو) حقيقته إلا في الأجسام وتقرر أن غير الله لا يطلق عليه اسم الرحمان فهو مجاز لا حقيقة له.([٤٦])

---

[٤٦] – تفسير الإمام ابن عرفة ، محمد بن محمد ابن عرفة ، ١/٨١– ٨٤

وتكلم ابن عطية هنا في الاسم هل هو عين المسمى أو غيره؟

قال الفخر ابن الخطيب في نهاية العقول: المشهور عن أصحابنا أنّ الاسم هو المسمى، وعن المعتزلة أنه التسمية، وعن الغزالي أنه مغاير لهما، والناس طوّلوا في هذا وهو عندي (فضول) لأن البحث عن ذلك مسبوق بتصور ماهية الاسم وماهية المسمى، فالاسم هو الاسم الدال بالوضع لمعنى من غير زمان والمسمى هو وضع ذلك اللفظ بإزائه، فقد يكون اللفظ غير المسمى لعلمنا أن لفظ الجواز مغاير لحقيقة (المجاز) ، وقد يكون نفسه لأن لفظ الاسم اسم (للفظ) الدال على المعنى المجرد (عن) الزمان، ومن جملة تلك الألفاظ (لفظ) الاسم، فيكون الاسم اسما لنفسه من حيث هو اسم. وقال غيره: إنّ السؤال (سفسطة) .

وقال الآمدي (في أبكار الأفكار) ، وهو أحسن من تكلم عليه لأن المسألة لها تعلق باللغة (وتعلق بأصول الدين) أما اللغة فمن حيث إطلاق لفظ (الاسم) هل المراد به الذات فيكون الاسم (هو) المسمى أو اللفظ الدال عليه ك {سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى} أما تعلقها بأصول الدين فهو (هل) المعقول (من الذات) (منها) وحدها أو منها مع اسمها (أم لا) ؟ فإن كان (المعقول) منهما واحدا كان الاسم هو المسمى كالعالم والقادر.

وقال ابن عرفة: والصواب أن المعقول من الذات من حيث اتصالها بالصفة غير المعقول منها مجردة عن تلك الصفة، (فإنا) إذا فهمنا من لفظ العالم الذات من حيث اتصافها بالعلم استحال اتصافها بالجهل، بخلاف قولنا: «إن المعقول هو الذات القابلة (للاتصاف) بالعلم وبضده ولا شك أن المعقولين متغايران» .([٤٧])

---

[٤٧] – تفسير الإمام ابن عرفة ، محمد بن محمد ابن عرفة ، ٨٥/١

وانظر كلام الآمدي، فهو طويل نقلته بكامله في آخر سورة الحشر وانظر مختصر ابن عرفة في فصل (الحقيقة) وما قيدته أنا في أواخر مسلم على حديث (إن لله) تسعا وتسعينا اسما مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة.

قلت: وقال ابن عرفة مرة أخرى: منهم من قال: تارة يراد بالاسم المسمى مثل: زيد عاقل، وتارة يراد به التسمية: كزيد (وزنه فعل) ، ومنهم من قال: يراد به المسمى: كزيد قادر، إذا أردت الذات. وتارة يراد به الصفة، فقادر موضوع لأن يولد به القدرة، وهو صفة من صفات الذات، والله أعلم بالصواب.([٤٨])

[٤٨] – تفسير الإمام ابن عرفة ، محمد بن محمد ابن عرفة ، ٨٦/١

الفصل الرابع
تفسير سُورَةُ الفَاتِحَةِ

تفسير سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وهي مقدمة لتلاوة كل سورة من سور القرآن، وروي عن بعض الصحابة: " إننا كنا نعرف نهاية سورة وابتداء سورة بنزول قوله تعالى: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم) وروي عن جعفر الصادق بن محمد رضي الله عنهما، أنه قال: " البسملة تيجان السور "، وقد قال عبد الله بن المبارك: " إنها جزء من كل سورة؛ ولذلك يجب ابتداء السورة بقراءتها على أنها جزء منها، وقال الشافعي: " إنها جزء من الفاتحة "، وتَردَّد في عدها جزءًا من كل سورة، ولكنها مهما تكن ليست جزءا من غير الفاتحة، وهي لازمة للفصل بين سورة وسورة من السور التي ابتدأت بذكرها.

ولأن ثمة كلامًا في كون سورة براءة ليست مستقلة عن سورة الأنفال، وعدها الأكثرون جزءا منها – لم تكن مبتدأة بالبسملة، وينسب إلى الإمام مالك رضي الله تبارك وتعالى عنه أنها ليست جزءا من سورة الفاتحة أو غيرها، ومؤدى هذا القول أنها ليست من القرآن ككلمة " آمين " في آخر الفاتحة؛ إذ إن الفاتحة ضراعة إلى الله تعالى، فناسب أن تذكر بعدها " آمين "، وعدَّ القرطبي في كتابه " أحكام القرآن " أن في مذهب مالك أن البسملة ليست من القرآن هو الصحيح، وذكر أن القرآن كله متواتر، والبسملة

ليست متواترة، فلا تعد من القرآن، ولكن تكون علامة على انتهاء سورة، وابتداء سورة أخرى.([٤٩])

ومع أنه قرر ذلك – يقرر أن مالكا يرى أنها يُبتدأ بها في الفرض والنافلة، كما رواه ابن نافع، وفي الحق أن ذلك القول غريب عن القرآن، وذلك لأن البسملة متواترة تواتر كل أجزاء القرآن، فلم تثبت بحديث آحاد، بل ثبتت بالقرآن نفسه، فقد كتبت في مصحف عثمان وما قبله، ولا تواتر أبلغ من هذا، وما كان للشيخين أبي بكر وعمر، وذي النورين وجميع الصحابة أن يدوِّنوا في المصحف ما ليس من القرآن، و " آمين " هي التي أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بالنطق بها في عقب قراءة الفاتحة.

إن ادعاء أنها ثبتت بخبر آحاد يقتضي ذكر ذلك الخبر، ورواته، ومقدار قوتهم، وضعفهم، وعددهم، وليس كذلك، بل هي ثبتت مقترنة بسور القرآن على أنها ثابتة بين كل سورة وسورة.

والسورة التي لم تصدر بها، ثبت عدم تقدمها لهذه السورة بالتواتر، فهي متواترة بالذكر في كل السور، ومتواترة بالسلب في سورة واحدة.

ولهذا نرى أن نسبة ذلك القول إلى إمام دار الهجرة مالك هو في ذاته موضع نظر، وقد اقترن ذلك بادعاء أنه لم يقرأها أحد من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فيقول القرطبي عفا الله عنه: " فى مسجد النبي – صلى الله عليه وسلم – بالمدينة انقرضت عليه العصور ومرت عليه الأزمنة والدهور من لدن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى زمان مالك، ولم يقرأ أحد فيه قط (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم)

---

[٤٩] – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، دار الفكر العربي ، ج١ ، ٤٣ ، ٤٤

اتباعًا لسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –وإن لنا أن نرد ذلك القول، ونأخذ ذلك من كلامه هو، فهو قد روى أن عمر، وعليًّا، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، كانوا يقرأونها ويسرون بها.

وروى هو أيضا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه كان يسر بها ولا يجهر، فقد روي عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال: " كان يصلي بنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلم يُسمعنا قراءة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " وروي عنه أيضا: صليت خلف رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وخلف أبي بكر، وعمر، فلم أسمع أحدًا منهم يجهر بـ " بسم الله الرحمن الرحيم ".([٥٠])

فالأمر أمر الجهر بها، لَا أمر تركها، وفرق كبير بين الترك لها أصلا، وترك الجهر بها.

وبذلك ينتفي ما ادعاه من أن أحدا لم يقرأها، اتباعا للسنة إن كانت سنة، وذلك لأنهم قرأوها خفية وفي سر، آخذين ذلك من سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –.

ومن كتاب الله عز وجل: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥).

وننتهي من هذا إلى أن البسملة جزء من القرآن الكريم، وهي فاصلة بين السور تدل على الانتهاء من سورة والابتداء بسورة أخرى.

وإن الشافعي يعُدها جزءا من الفاتحة، ومهما يكن فإنه لابد من البدء بقراءتها، وغيره يوجب البدء بها لَا على أنها جزء من الفاتحة، ولكن على أنها قرآن يبدأ به في أول

---

[٥٠] – رواه النسائي: كتاب الافتتاح – باب: ترك الجهر بـ " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "

كل سورة. والأكثرون عدوها على أنها يبتدأ بها سرا لَا جهرًا أو تضرعًا في خفية، ودون الجهر من القول، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(التعوذ في ابتداء التلاوة)

قال الله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، فُهِم من هذا النص الكريم أنه عند التلاوة لابد أن يقدمها بقوله: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "، ثم تكون بعدها " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " وقد حكي ذلك عن عطاء وغيره، فقالوا: " إن الاستعاذة واجبة عند كل تلاوة في غير الصلاة "، وإنما في الصلاة فلا وجوب، ويظهر أن ذلك ([51])

بالاتفاق؛ لأنه يكون زيادة واجب في الصلاة لم يثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكل وجوب في عبادة من غير إيجاب من صاحب الشرع يُرَد ولا يؤخذ به. وكان النخعي، ومعه قوم يتعوذون استحبابًا في كل ركعة في الصلاة، فحيث كانت قراءة قرآن تعوذوا استحبابًا، وروي عن أبي حنيفة التعوذ في قراءة الركعة الأولى فقط.

ومن المتفق عليه أمران:

أحدهما: أن الاستعاذة ليست جزءا من الصلاة، ولا شرطا لقراءة الفاتحة، كما هو مقرر عند الشافعي، لَا سرا ولا جهرا؛ لأنه لم يثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه التزم بها لَا جهرا ولا خفية.

الثاني: أن كلمة " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " ليست قرآنا، وإنما استجابة لقول الله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، وكلمة " أعوذ بالله " هي الكلمة التي يرددها الناس عند الاستعاذة، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول

---

[51] - زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٤٦/١

في الاستعاذة: " أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم "، وروى ابن مسعود أنه تعوَّذ بها أمام النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال له: " يا ابْنَ أمِّ عَبْدٍ، أعوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرجيمِ هكلذ أقْرَانِي جِبْرِيلُ عَنِ اللوح عَنِ القَلَم " ([٥٢]) وإن هذا النص يستفاد منه أن كلمة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هي المروية عن النبي – صلى الله عليه وسلم –. وننتهي من هذا إلى أنها مستحبة وليست واجبة، ولكن إذا قالها أيُسِرُّ أم يجهر؟ الجمهور على أنه يجهر عند الصلاة بها، وقال حمزة: يسرُّ بها، ومن قال إن الاستعاذة تكون بعد القراءة لأن الله ([٥٣])

يقول: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. . .، فالقراءة تسبق الاستعاذة امتثالا لأمر الله تعالى؛ ولكيلا يكون القارئ متغنيا، ولا متلقيا، وليكون في حضرة الله في قراءته وبعدها، ويكون طائعا لله تعالى في كل أحواله.

الفاتحة أو فاتحة الكتاب قال جار الله الزمخشري في كتابه الكشاف: إنها مكية؛ لأنها أنزلت بمكة، وذلك هو المشهور، وقيل إنها أنزلت بمكة مرة، والمدينة مرة أخرى عند تحويل القبلة إلى الكعبة، والظاهر أنها مكية، نزلت عند فرض الصلاة بمكة، وكونها نزلت بعد ذلك بالمدينة تكرار للنزول، ولا نحسب ثمة حاجة للتكرار فإنها متى نزلت كانت واجبة التلاوة على أنها جزء من القرآن ولا حاجة إلى تكرار نزولها.

وتسمى أم القرآن، لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى، بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد، وتسمى أيضا سورة الكنز، وسورة الوافية لذلك الشمول الإجمالي الذي اشتملت عليه فيما ذكرنا، وتسمى

---

[٥٢] – تفسير القرطبي ، القرطبي ، ص ١٢٨.

[٥٣] – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٤٧/١

المثاني لأنها تثنى في كل ركعة ولأنها السبع المثاني. وتسمى سورة الصلاة، لأنها مأمور بقراءتها فيها، وتسمى الشفاء والشافية وهي سبع آيات بالاتفاق.(٥٤)

وكلها أسماء سميت بها لمعان فيها، ولاحظَها من جوانبها من سماها، فكل اسم يمثل جانبا من جوانبها.

ابتدئت الفاتحة كما ابتدئت كل سورة ما عدا براءة بـ " بسم الله الرحمن الرحيم "، وعدها الشافعي وفقهاء مكة جزءا من الفاتحة، لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – عدَّ الفاتحة سبع آيات، ولا تكون سبع آيات إلا إذا عدت بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ جزءا منها، وعند أهل المدينة ومالك ليست جزءا من الفاتحة (٥٥)

وقد علمت القول المختلف في ذلك، وقد قررنا أنها جزء من القرآن وابتداء لكل سورة، وقال الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة: " ما بين دفتي المصحف قرآن "، وقد كانت مكتوبة في مصحف عثمان رضي الله عنه والمصحفين من قبله، وتواتر المصحف بتواتر القرآن، والإجماع انعقد على ذلك، ولم تنقل بخبر آحاد كما ادعى بعض المالكية.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (بِسْمِ) الباء هنا هي حرف جر يدل على السببية، وهي مبنية على الكسر كـ " لام " الأمر، والمعنى: بسبب اسم الله الذي لَا. يعبد سواه وأنه الرحمن الرحيم أبتدئ، فهي متعلقة بمحذوف يُذكر بعدها، لبيان اختصاص الابتداء أو التبرك باسم الله تعالى، فالتأخير يفيد الاهتمام بمتعلّق الباء ومزيد الاختصاص بالاستعانة والتيمن والتبرك به. و البسملة يبدأ بها في كل أمر ذي بال، كما قال – صلى الله

٥٤– الكشاف ، للزمخشري، جزء ١ ، ص ٤.

٥٥ – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٤٨/١

عليه وسلم -: " كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُبْدَأْ فِيهِ بِبِسْم اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم فَهُو أَبْتَر " والفعل الذي تعلقت به الباء محذوف، وكما ذكرنا يقدر مؤخرا، لأن المقدم يكون محل التخصيص.

ولأن البسملة يبدأ بها كل أمر ذي بال، فإنه يقدر الفعل على حسب ما نبتدئ البسملة، ويرى بعض المفسرين أن يقدر الفعل المحذوف " أبتدئ "، لأنه يكون صالحا، لكل أمر ذي بال وشأن، والآخرون قالوا: إنه يقدر في القرآن أتلو أو أقرأ أو أرتل أو نحو ذلك، وبعض العلماء قال: إنها في القرآن الكريم في معنى القسم بأن القرآن حق لَا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتكون على هذا للقسم، ويقدر الفعل بـ " أُقسم ". والمعنى على ذلك في أول كل سورة اجعل قسمك بالله الرحمن الرحيم أن ما تتلو هو الحق الذي لاريب فيه، فهو الكتاب لَا ريب فيه هدى للمتقين.([٥٦])

و (اللَّهِ) هو لفظ الجلالة الدال على أنه وحده له كمال العبودية، واسم الله – قال بعض العلماء إنه المراد فيه الذات العلية فهو اسم يعني المسمى. والمعنى هو القسم بالذات العلية، وقرر بعض العلماء أن الاسم الأعلى هو المقصود بالافتتاح تبركا وتيمنا باسم الذات العلية، ولها المكان الأقدس من العباد تبارك الله، والاسم ذاته يتيمن به ويتبرك، فليس المراد بالاسم الذات؛ لأنها مذكورة، كما قال تعالى: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)، وقوله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى)، وهذا ما نميل إليه؛ لأنه لَا يحتاج إلى تحول من المعنى الأصلي لكلمة الاسم إلى غيره، ولأن إطلاق الاسم على المسمى من قبيل المجاز، ولا يصار إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة، ولأن قصد الاسم الأسمى ابتداءً يفيد معنيين، وهو تقديس الاسم في كلمة بسم الله، وتقديس

---

[٥٦] – المصدر السابق ، ١/ ٤٩

المسمى وهو الله سبحانه. ولو أطلق الاسم على المسمى، لكان تقديسا للذات العلية من غير إعالاء للاسم في ذاته، ولا شك أن الأول أبلغ تسبيح لله تعالى لقاء التبرك بذكره، والتيمن به سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

وكلمة (اللَّهِ) تعالى لَا تطلق إلا على الذات العلية خالق الكون، ومنشئ الوجود على غير مثال سبق، بديع السماوات والأرض. وقالوا: إن أصل كلمة الله: الإله، ثم كان حذف الهمزة، مع تقدير أنها مطوية في الكلام مقدرة فيه. والإله تطلق على المعبود، وتعم المعبود بحق وبغير حق، ولكن كلمة (اللَّهِ) تعالى لا تطلق إلا على المعبود بحق، فيُقال: آلهة المشركين، وآلهة الرومان، وآلهة المصريين، ولا يقال: " الله " إلا في مقام أنه الخالق المدبر المنشئ المستحق للعبادة؛ ولذلك كانت ألفاظ القرآن الكثيرة في مخاطبة المشركين، على أن الله تعالى معروف بأنه المنشئ، وأنه غير آلهتهم، فكانوا يقولون: الآلهة هبل، واللات، والعزى، ومناة الثالثة؛ يقولون عنها إله وآلهة ولا يقولون عن واحدة منها إنه " الله "([٥٧])

والوصفان اقترنا واجتمعا في البسملة، كما اجتمعا في بسملة كتاب سليمان عليه السلام لبلقيس، إذ قال تعالى: (إِنَّه مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّه بِسْم اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وهذه بسملة كبسملة أوائل السور، كما اجتمع الوصفان في آيتين أخريين من آيات القرآن، ففي أول سورة فصلت ذكر للقرآن الكريم، وقال سبحانه عن الذكر (تَنزِيلٌ منَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم) وجاء في سورة الحشر (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ).

---

[٥٧] – نفس المصادر ، ١/ ٥٠

ولا شك أن الوصفين من أسماء الله الحسنى وصفاته، ولا شك أن لكل منهما معنًى قائمًا بذاته، منفردًا به عن الآخر. يقول الزمخشري (نقلا عن الزجاج): إن صيغة فَعْلان من الصيغ التي تدل على الامتلاء، كغضبان، وشبعان، وسكران، وجوعان، فإنها تدل على الامتلاء من الفعل الذي اشتُقت منه، فكذلك الرحمن معناها الممتلئ رحمة، ورحيم تدل على الاتصاف بالرحمة التي تليق بذاته العلية من غير امتلاء.

ولذلك يقول الزمخشري ومن تبعه في دراساته البيانية للقرآن الكريم: إن " الرحمن " أبلغ من " الرحيم "، وإن كان كلامه تعالى كله فوق الكلام البشرى وما ترى فيه من تفاوت، وإن كان كله في أعلى درجات البيان لَا يساويه بيان للإنسان. وبدراسة اللفظين في القرآن يتبين لنا الفرق بينهما في الاستعمال القرآني السامي في بلاغته إلى ما لَا يتسامى إليه كلام بشر، ولا يدانيه شيءٌ من الكلام الإنساني.

وعند الاتجاه إلى استقراء الآيات القرآنية نجد القرآن الكريم جمع بين الوصفين في آيتين غير البسملة وقد ذكرتا، وذكر وصف الرحمن منفردا في نحو ستين موضعًا من كتاب الله العزيز، وكان يذكر ذلك الوصف السامي غير مضاف إلى فعل من الأفعال، ولا واقع على أحد كقوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى. . .)، وكقوله تعالى: (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا)، وقوله تعالى: (الرَّحْمَن عَلَّمَ الْقُرْآنَ)، ومثل قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ).

وهكذا في نحو ستين آية يذكر وصف الرحمن مجردا من الإضافة إلى شيء أو شخص أو فعل كما يذكر " الله " تعالى، وذكر وصف الرحيم منفردًا عن الرحمن في أكثر من ثلاثين ومائة آية، ونجد أنها مضافة إلى رحمته سبحانه وتعالى بالعباد مثل قوله تعالى: (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحِيمٌ)، ومثل

قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رحِيمٌ)، ومثل قوله تعالى: (فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

ومن هذه الموازنات بين استعمال القرآن لكلمة " رحمن "، واستعماله لكلمة " رحيم " ننتهي إلى ما يأتي:

أولا: أن وصف الرحمن وصف ذاتي للذات العلية لَا يتعلق بفعل ولا بشخص يذكر، ولكنه وصف لله أو اسم له كلفظ الجلالة، ولكنه يشعرنا بالرحمة، كما أنه لفظ يشعر بالألوهية واستحقاق العبادة؛ ولذلك قال بعض العلماء: إن كلمة " الرحمن " اسم لله تعالى، وأما " الرحيم " فهو وصف لله تعالى يتعلق برحمته بالعباد المكلفين المخاطبين بشريعته، والذين طلب منهم أن يقوموا بحق الله تعالى في إجابة أوامره، واجتناب نواهيه؛ ولذلك يقترن كثيرا بالتوبة والمغفرة.

ثانيا: أن الرحمة في " الرحمن " أكثر من " الرحيم "، ولذلك قالوا: إن رحمة الرحمن، هي الرحمة بالوجود كله، فبرحمة الرحمن يرزق الله من في السماوات والأرض، وبرحمته الواسعة ينزل الغيث، ويرسل الرياح، ومهَّد الأرض، وجعل الجبال، وبرحمة الرحمن بعث الرسل مبشرين ومنذرين، وبرحمة الرحمن جازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْر أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ).

وهكذا كانت رحمة الرحمن شاملة الوجود كله، والرحيم متعلق في رحمته بالمكلفين.[٥٨]

---

٥٨ – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٥٤/١

ثالثا: أن " الرحمن " أكثر رحمة لما في الوصف بالرحمة فيه من شمول يشمل الوجود الإنساني كله، ووصف " الرحيم " خاص بالمكلفين، كما يدل على ذلك سياق اللفظ في القرآن الكريم.

ومن هذا الاستقراء والتتبع، واستنباط المعاني لألفاظ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) من استعمال القرآن ننتهي إلى أن بيان معاني (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم) أن الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نتلو القرآن مبتدئين تالين لآياته باسمه الأقدس. نتبرك به ونتيمن ونسبح باسمه، وهو الله الإله المتفرد بالخلق والتكوين والتدبير والمتفرد بالعبودية وحده جل جلاله لأنه بديع السماوات والأرض والوجود كله، وهو " الرحمن " ذو الرحمة الواسعة التي تعم الوجود كله في السماوات والأرض، والدنيا والآخرة، المدبر للوجود برحمته، وهو " الرحيم " بعباده يغفر لهم ويتوب عليهم، ويشرع لهم من الشرائع ما يكون خيرًا لهم في معادهم ومعاشهم، وهو بكل شيء عليم.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

وسورة الفاتحة كما ذكرنا مكية، وقد أجمع العلماء على ذلك، بل إن بعض العلماء يدعي أنها أول سورة نزلت من القرآن، ولكن يخالفهم الأكثرون في ذلك، ويقررون أن أوَّل ما نزل من القرآن: (اقْرأْ بِاسْم رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)، وقد روى البيهقي في ذلك خبرا عن النبي – صلى الله عليه وسلم –. وقد وفق العلماء بين ما رواه البيهقي وما هو مقرر من أن أول ما نزل (اقْرأْ بِاسْم رَبِّكَ) بأن الفاتحة هي الأولى نزولا، وهي سورة نزلت دفعة واحدة، أما الثانية فآية، وهي قد أخبرت عن الأولى – أي عن الفاتحة – الأمر بالقراءة، فالأمر بالقراءة يقتضي مقروءا.

والذي أميل إليه أن الفاتحة ليست أول ما نزل من القرآن، ويرجح عندي أنها نزلت عندما فرضت الصلاة في الإسراء والمعراج.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) الحمد هو الثناء الكامل على الأفعال الاختيارية، وعلى من تصدر عنه هذه الأفعال الاختيارية فيعم نفعها وهي مصدر الخير لهذا الوجود الكوني والإنساني.

وهناك كلمات ثلاث تتلاقى معانيها في جملتها، وتختلف في دقتها، وهي كلمة " حمد "، وهي تكون كما ذكرنا الثناء الجميل على من يعمل أعمالا اختيارية عامة النفع، ودافعة للضرر للوجود كله بحكمة من يفعلها، والكلمة الثانية " المدح "، وهي الثناء على الصفات الذاتية، والشخصية الطيبة، فيقال: مدحت الصفات الطيبة في فلان، ولا يقال: حمدتها، إنما يقال: حمدت الله تعالى ومدحت خصال فلان، وقيل: إن الحمد والمدح مترادفان، ولعل قائل هذا القول نظر إلى معنى الثناء فيهما من غير أن ينظر إلى الباعث، فإن الباعث في الحمد أعمال الإنعام والخير، والباعث على المدح الشخص والذات، فيقال: مدحت الجميل في صفاته الحسنة، وخلاله الكريمة، ولا يقال حمدته، ومن العلماء من قال إن المدح أعم، ومن قال العكس، ونميل إلى التفرقة بينهما باختلاف الموضوع.

و" الشكر " امتلاء النفس بالإحساس بالنعمة، واندفاع النفس إلى الطاعة والخضوع، والقيام بحق المنعم ومقابلة الفضل والنعمة بالإحسان في الطاعة والواجبات، وقد قال تعالى في ذلك: (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ. . .)، ويقول ابن جرير الطبري: إن الحمد والشكر بمعنى واحد، والحق أنهما يتلاقيان ويختلفان، فيتلاقيان في معنى الإحساس بالنعمة والقيام بحقها، وما يجب بالنسبة للمنعم، ولكنهما يختلفان في القيام بحق المنعم، فالقيام بحق المنعم في الشكر الطاعة والعمل وجعل الجوارح كلها في طاعة الله تعالى، والخضوع المطلق لله تعالى في كل شأن من شئونه، وحال من أحواله.([٥٩])

[٥٩] - المصدر السابق ، ١/ ٥٦

والقيام بحق المنعم في الحمد الثناء على الله تعالى ثناء مطلقا كاملا مع تذكر نعمائه، وتذكر ما يحيطه من الوجود كله، لَا في ناحية من نواحي شخصه؛ ولذلك روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " الحمد رأس الشكر " ([٦٠]) والحمد ذاته عبادة والشكر يكون على النعمة وبالمثابرة على الطاعة والعبادة.

ومهما يكن فالألفاظ الثلاثة متقاربة في مؤداها – وإن تخالفت في مدلولاتها و " ال " في قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ) للاستغراق والكمال، أي الحمد كله وبكماله لله تعالى وحده، فلا يستحق أحد من خلقه حمدا؛ لأن الحمد كما ذكرنا عبادة، والعبادة لله تعالى، وحده وحمد غيره عبادة لغيره، وشرك بالله تعالى، وأصل الضلال يبتدئ من حمد غير الله، والثناء عليه، ثم ينقاد من بعد ذلك إلى ما يخرجه عن طاعة الله، فلا حمد إلا لله ولا ثناء إلا لله.

وإن الحمد إنما هو ابتداءً على ما أنعم الله تعالى على الوجود الكوني والإنساني من غير وجود فيكون الحمد له وحده، وتُقرأ كلمة " الحمد لله " برفع الدال. والمعنى: الحمد الثابت الكامل المستغرق لكل صنوف الحمد هو لله وحده، ولا يحمد سواه؛ لأن كل نعم هذا الوجود الكوني والإنساني لله تعالى، فكل خير الوجود منه وإليه.

وهناك قراءة بفتح الدال على أنه مصدر، ومنصوب بفعل محذوف، ويكون المؤدَّى للقول: احمَدِ الحمدَ كلَّه لله تعالى، فلا تحمدْ سواه، وإن حمد سواه شرك لما ذكرنا من أن الحمد ذاته عبادة، وهذه القراءة تفيد تجدد الحمد آنًا بعد آنٍ بالتذكير بنعم الله

٦٠ – رواه عبد الرزاق في المصنف، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

تعالى وآلائه، والقراءة السابقة تفيد دوام الحمد، كما تدل على ذلك الجملة الاسمية؛ لأنها تفيد الاستمرار.([61])

وإني أرى أن القراءات المتواترة كلها لَا تتباين، ولا تتضارب، بل تتلاقى، وتكمل واحدة معنًى في الأخرى، فبالجمع بين القراءتين يكون معنى النص السامي: اجعل الحمد دائما مستمرا ومتجددا؛ ليكون القلب دائما عامرا بذكر الله تعالى.

(رَبِّ الْعَالَمِينَ) في هذا الوصف للذات العلية إشارة إلى سبب الحمد الكامل، الدائم المستمر المتجدد؛ لأنه هو المالك والسيد، والمربي لهم والرقيب عليهم، الذي ميزهم بالنعم المستمرة، والآلاء المتكررة التي لَا تنقطع أبدا.

فالرب هو المالك وهو السيد، وهو المصلح والمدبر، والجابر والقائم على كل شيء، الذي يسير الوجود كله بحكمته وبقدره وإرادته.

و " الرب " وصف لله تعالى مأخوذ من ربَّ الشيء يَرُبُّهُ بمعنى قام بإصلاحه وتقويمه، وتتبَّعه بالإصلاح والتنمية في كل أدواره، وروي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: " هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِن نِعْمَةٍ تَرُبُّها " ([62])أي تصلحها وتنميها، ثم أطلقت كلمة " رب " على الله سبحانه وتعالى، وهذا المعنى يتلاقى مع " رَبَي "، فإن التربية هي الإصلاح والتغذية، والعمل على الإنماء، ولقد جاء في الصحاح للجوهري: " رَبَّ فُلانٌ ولده يَرُبُّهُ رَبًّا، وتَربِيَةً بمعنى: ربَّاهُ، والمربوب المُرَبَى ".وعلى ذلك يصح أن تقول إن الرب من رَبَّه، بمعنى نماه، أو من التربية بمعنى الإصلاح والإنماء، والمعنى في

---

[61] – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٥٤/١

[62] – أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة باب فضل الحب في الله (٢٥٦٧)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (٩٨٨٧).

الحالين أن الله رب العالمين بمعنى مغذيهم ومنميهم والقائم عليهم، والمصلح لهم، والمدبر لأمورهم، وهو مربيهم لأنه القائم عليهم والمهذب لهم بما خلق فيهم من عقول مدركة تدرك الخير والشر، وتختار ما تفعل وتحاسَب على ما تقدم من خير فتنال به الثواب، وما تكسب من شر فينالها العقاب.([٦٣])

وكلمة (الْعَالَمِينَ) يريد بها العقلاء من الملائكة والإنس والجن، فهو رب هؤلاء جميعا، هو الذي رباهم وأصلحهم، ودبر أمورهم، والعالَمون جمع لعالَم، وهو كل موجود غير الله تعالى، ولكن إذا جاءت " عالَمون " بجمع المذكر العاقل، أريد بها العقلاء ممن خلق الله تعالى، وقد أيد ذلك القول بقول ابن عباس رضي الله عنهما: " العالَمون الجن والإنس "، ودليله قوله تعالى: (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)، فلا ينذر إلا الجن والإنس؛ لَا تنذر الجبال ولا الأرضون، وإنما ينذر العقلاء الذين يتصور الشر منهم، أو لَا يتصور كالملائكة، وقد قلنا إن لفظ العالمين يعمهم.

ويسأل سائل: لماذا جمع هنا، والأقرب الإفراد، ونقول ما قاله العلماء: إن المفرد هنا (وهو عالَم) أعم من الجمع، ولكن يبقى السؤال لم ذكر الجمع؟ أجابوا بأن في ذلك إشارة إلى أن كل عاقل، أو العاقلين بشكل عام فيهم العوالم كلها، ففيهم دقة التكوين وجمال التصوير وروعة الخلق، من عقل يدبر، ولسان وجوارح تتحرك، فجمع الله تعالى في عالم العقلاء كل العوالم الأخرى في إحكام الصنع وبديع التكوين كما قال تعالى في تقديم العلم بالنفس، وجلائل الخلق والتكوين: (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)، ففي الإنسان أكمل صورة للخلق والتكوين.

(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)

---

[٦٣] – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٥٧/١

هذان وصفان من أوصاف الله تعالى، أو اسمان من أسمائه ذُكِرَا في مقام السببية لاستحقاق الله تعالى الحمد وحده، وقد ذكرنا هذين الوصفين في الكلام في البسملة، فلا نعيده، ولكن نذكر هنا مقامهما من النسق بعد قوله تعالى: (رَبِّ الْعَالَمِينَ) فنقول إن " الرحمن والرحيم " يدلان على الرحمة التي يصلح بها الكون ويدبر أمره بحكمته وقدرته، فهو سبحانه يرب العالمين ويصلحهم رحيمًا بهم، ويصلح الكون والوجود كله برحمته الشاملة لاسمه الأعلى الرحمن.

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

يوم الدين هو يوم الجزاء، وقيل يوم الطاعة، وقيل يوم الشريعة الحاكم على كل عقيدة باطلة، ومهما يكن من اختلاف هذه الألفاظ في مدلولاتها الخاصة، فإن النهاية تتجه إلى أن ذلك اليوم هو اليوم الذي يجازى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وهو الذي تجد فيه كل نفس ما عملت محضرا، يُعلِنُ ما تستحق من عقاب أو ثواب.

و (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) فيه قراءات تختلف في أشكالها، ولا تختلف في مضمونها فقرئ هكذا: مالك يوم الدين، وقرئ: مليكِ يوم الدين، وقرئ: مَلِكِ يوم الدين، وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه: مَلَكَ يومَ الدين، وقرئ: مالكًا يومَ الدين، وقرئ: مالكٌ. والقراءات كلها تنتهي إلى معنى واحد، وإن كانت تختلف في أعاريبها، والنص العثماني يشملها جميعا، ولا تخالف في النسخ المتواتر، بيد أن قراءة النصب " مالكًا " تكون حالا من الذات العلية، أي أنه الرب للوجود كله والمنعم عليه بجلائل النعم؛ جليها وخفيها، حال كونه مالكًا من بعد ذلك ليوم الجزاء، الذي يجزي كل نفس ما كسبت، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، و " يوم الدين " تكون ظرفا غير مضاف إليه، وكذلك في قراءة الرفع مع التنوين يكون يوم الدين ظرفا للملك وكمال السلطان.

وقراءة " مالك " تفيد أن كل شيء مملوك لله تعالى في ذلك اليوم، فالنفوس في مآلها وفي نهايتها ملك لله، ومستقبلها القريب والبعيد لله لَا تملك من أمرها شيئا، بل كما قال تعالى: (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)، وإذا كان سبحانه وتعالى يملك كل شيء في هذا اليوم، فالسلطان، والتدبير له، وحده الذي يملك الجزاء، والمغفرة إذا أراد، ولا إرادة لسواه، إنه الحكم العدل اللطيف الخبير.

و" مَلْك "، و " مَلِك "، الفرق بينهما وبين قراءة " مالِك " كالفرق بين المصدرين، المِلْكِ، والمُلْك، فالمِلْك استيلاء على الأشياء يكون مردها إليه، والمُلْك السلطان بالأمر والنهي وتنفيذ ما يريد، وألا يكون معه آمر ولا ناه ولا حاكم سواه، ولا إرادة فوق إرادته، ولا حكم فوق حكمه.

ويلاحظ أن معنى المُلك يتضمنه بالاقتضاء معنى المِلْكِ، لأن من ملك شيئا ملك السلطان فيه، والسيطرة عليه، فالمِلْكَ يقتضي المُلْكَ والسلطان، والمُلْكُ لا يقتضي المِلك والسلطان، ولذلك يقال سبحان مالِك الملك، ولا يقال مَلِكُ الملك.

ورأينا أن كل قراءة متواترة قرآن، وأن القرآن لَا يخالف بعضه بعضا، بل قد يُتِمُّ بعضه بعضا، وليس لنا أن نراجح بين قراءة وقراءة، لأن كلتيهما تتمم الأخرى.([٦٤])

وخلاصة القول في القراءتين أن قراءة (مَلِك يوم الدين) موضِّحة لما تضمنته (مالك يوم الدين)، ولا نتصور أن تتعارض قراءتان متواتران؛ لأن القرآن لَا يضرب بعضه بعضا. وفي الإعراب " مالك " أو " مَلِكَ " مضاف إلى يوم الدين على أنه هو المسيطر المتصرف المالك لأحداث ذلك اليوم من جَزاء: ثواب أو عقاب أو مغفرة، وأنه واقع لَا محالة، وأن ما فيه في ملكه وتحت سلطانه وحده.

---

[٦٤] – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٦١/١

وإن اسم الفاعل يدل على الاستقبال، فلا يقال إنه مالك لليوم واليوم لم يجئ، وإن الأزمان الماضي والحاضر والمستقبل كلها بالنسبة لله تعالى واحدة.

هذا، ويلاحظ أن الأسماء أو الصفات هي كما أشرنا من قبل من قبيل السبب لانفراد الله تعالى بالحمد الكامل، فالربوبية الكاملة بالإنشاء لهذا الوجود وما فيه ومن فيه، وتعهده بالإنماء والتربية والتهذيب والتكميل، والرعاية لكل شيء، (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)، ثم رحمته الظاهرة والباطنة، والعاجلة والآجلة التي تعم الوجود كله من سماء وأرضين، وشموس ونجوم، ورحمته الخاصة بعباده العاقلين المكلفين من قبول للتوبة، وغفران، وثواب.

ثم كونه بعد ذلك مالكًا وحده ليوم الجزاء، كل هذه الأسماء والصفات من شأنها أن تجعله مستحقًّا للحمد الكامل بكل ضروبه، وفي كل الأحوال، وذلك بربوبيته الشاملة، ورحمته الكاملة، وامتلاكه وحده ليوم الجزاء.

وإن الأسماء أو الصفات كما أنها سبب لانفراده باستحقاق الحمد، هي أيضا سبب لانفراده بالعبادة والاستعانة، وطلب الهداية، وقد التفت الكلام الحكيم من بعد ذلك من الإخبار باستحقاق الحمد لله تعالى وحده، وبيان جليل أسمائه إلى ذكر ما ينبغي للمؤمن من إفراده بالعبادة والاستعانة به دون غيره، والضراعة إليه في طلب الهداية، لذا قال سبحانه:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

كان الكلام السامي يسير على نهج الغيبة بذكر مقام الربوبية وأسماء الذات العلية التي هي أوصافها من شمول الرحمة في كل الأحوال ولكل الوجود إلى تخصيصها بالمكلفين من عباده.

وبعد ذلك انتقل القول من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الانتقال من باب إلى باب في البيان يعطي للكلام روعة تليق بأبلغ من في الوجود، فالانتقال في القول من غيبة إلى خطاب يجدد في النفس الإقبال على الاستمتاع بالتلاوة، والاستمتاع بالسماع، والاعتبار بما في الكتاب، والإقبال الذي يتولد عنه التدبر والتفكر في آيات الله تعالى.

وإن الأوصاف السابقة لذات الله تعالى توجب على العبد التفكر في أمر الله تعالى وعبادته سبحانه، فكان من بعد ذلك ذكر أحوال العباد الواجبة، خاطبهم الله تعالى بكماله، فخاطبوه بما يليق بهم أن يفعلوه، وهو إفراده بالعبادة والاستعانة، وأن يطلبوا منه الهداية إلى الصراط المستقيم.

وإن العباد إذ يتدبرون صفات الذات العلية، ويستحضرون جلالها، وإفضالها، وإنعامها وسلطانها يصلون في مداركهم إلى مرتبة المشاهدة الروحية لله تعالى؛ ويرتفعون إلى إدراك ملكوت الله تعالى ليخاطبوه قائلين: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

ولقد قال في هذا المقام العلامة أبو السعود في تفسيره: " إن حق التالي بعدما تأمل فيما سلف من تفرده تعالى بذاته الأقدس المستوجب العبودية بامتياز ذاته عما سواه بالكُلِّية، واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميزة له سبحانه عن العالمين، وافتقار الكل إليه في الذات والوجود ابتداء وبقاء منه، أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان، وينتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهود، ويلاحظ نفسه حاضرا في محاضر الأنس كأنه واقف لدى مولاه، ماثل بين يديه، وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلا: يا من هذه شئون ذاته وصفاته نخصك بالعبادة

والاستعانة، فإن كل ما سواك كائنا ما كان بمعزل عن الوجود فضلا عن استحقاقهما أن يعبد أو يستعان " ([٦٥]).

وإن الارتقاع إلى مقام المشاهدة، ومخاطبة الله تعالى هو الذي من أجله كانت – أي الفاتحة – واجبة التلاوة في كل ركعة من ركعات الصلاة؛ لأن الصلاة وقوف بين يدي الديان، واتجاه إلى حضرته العلية، ومشاهدة روحية.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) " إيَّا " ضمير منفصل أصله بمقتضى السياق العادي " نعبدك " فلما قدم الضمير انفصل، و " الكاف " حرف للدلالة على الخطاب، كما أن " الهاء " للدلالة على الغيبة في قوله: " إياه "، و " الياء " دلالة على المتكلم، و " إيانا " دلالة على المتكلمين، وهكذا. وقيل إن " الكاف " وأخواتها أجزاء من الضمير، وهو اختلاف إعرابي لَا جدوى فيه في مقامنا هذا. والعبادة أكمل أنواع الخضوع، والتذلل لله تعالى، ولا تكون لغير الله تعالى، فهو وحده المعبود بحق، فلا يعبد سواه، وإن دوام العبادة والاستمرار عليها مع القيام بحقها من خشوع وخضوع لله وتذكر مقام الله العلي الأعلى، وحضور لذاته العلية كأنه يرى الله تعالى، مع الإحساس بأنه – سبحانه – يراه.

إن دوام العبادة على هذا النحو تولِّد في نفسه صدق العبودية، فيحس في كل أحواله بأنه لله، ويحب الشيء لَا يحبه إلا لله، ويكون ربانيا، مستجيبا لأمر الله: (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ. . .).

والاستعانة طلبُ العون من الله تعالى، مستحضرا ما في الذات العلية من صفات الربوبية، والرحمة، والسلطان المطلق يوم الجزاء؛ إذ لَا سلطان في يوم الدين لأحد

[٦٥] – انظر تفسير أبي السعود، لابي السعود، ج ١، ص ١٨.

سواه، وقد جاء (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) قبل (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)؛ لأن العبادة حق الله تعالى، والتقدم إليه بالخضوع الذي لَا خضوع مثله، والاستعانة حق العبد أو طلبه العون له، فما هو حق أوثق وأولى بالتقديم، ولكن يجب أن نلاحظ أن الاستعانة والضراعة إلى الله تعالى، وإفراده سبحانه بطلب العون منه سبحانه هو عبادة أيضا، كما هو طلب من الله؛ لأن الدعاء المخلص لله تعالى هو عبادة في حد ذاته، حتى رُوِى: " الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ " ([٦٦]) وكما قال تعالى: (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)، وإطلاق الاستعانة من غير متعلّق بذكر المستعان عليه من الأمور دال على أنه يستعين الله تعالى في كل أمور حياته. والاستعانة هي نوع من استصغار حاله بجوار عظمة الله تعالى، وافتقاره إليه تعالى، وأنه محتاج إليه دائما، ولا يركبه غرور الحياة والضلال في أن يُقِرَّ بنفسه الغرور، وهو استجابة وفهم لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

وإن من أعلى أبواب الاستعانة، الاستعانة بالله تعالى على أداء الواجبات والقيام بفروض الله تعالى، فهو يستعين بالله تعالى على أداء واجب العبادة ليصل إلى درجة العبودية، ويكون ربانيا.

وتقديم (إِيَّاكَ) على (نَعْبُدُ) و (نَسْتَعِينُ) لتعظيم الله تعالى بذكره أولا، ولأن التقديم للاهتمام بالمعبود والمستعان؛ وللدلالة على أنه سبحانه وتعالى هو المختص بالعبادة وحده، وأنه لَا يستعان بغيره، وفي ذلك كمال التوحيد والخضوع له وحده سبحانه

[٦٦] – أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الدعوات (٣٣٧١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وتعالى، ولقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ): معناه نعبدك ولا نعبد غيرك.

فتقديم إياك كما في قوله تعالى: (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)، وقوله سبحانه: (وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)، وتكرار (وإِيَّاكَ) في (نَعْبُدُ) و (نَسْتَعِينُ)، لبيان التباين بينهما، وأن ذلك حق الله، وأن هذا طلب من العباد، ولتكرار النص على تخصيص ذلك بالله الواحد الأحد الفرد الصمد.

وأول الاستعانة طلب الهداية؛ ولذلك قال تعالى:(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)

بعد أن ذكر دعاء العباد لربهم باختصاصه بالعبادة، طلبَ الاستعانة بالله تعالى في كل شيء مرغوب فيه محمود غير مذموم، وذكرت الاستعانة متجهة إلى الله تعالى من غير الباء، إذ هي تتعدى بها، فيقال استعان به، وتركت الباء للتوجه إلى الله تعالى من غير توسط، ولو كان توسطًا لفظيًّا بحرف الباء، والتوجه إلى الله وحده بحيث يواجه الذات العلية بإشراف النفس من غير رؤية ولا حسٍّ إلا أن يكون روحيا.

وقد ذكر أعلى مراتب الاستعانة، وهي التي لَا تكون لأمور تتعلق بالرغبات الدنيوية ولو كانت في حلال، بل أعلاها ما يتعلق بالنفس وهدايتها، فقال سبحانه على لسان المتقين: (اهْدِنَا) ومجيء ذلك في كتاب الله تعالى وبقوله الحكيم تعليم وتربية للنفس المؤمنة أن تكون استعانتها بالله تعالى تكون أولا بطلب الهداية من الله، وقوله تعالى على ألسنة عباده المتقين: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) هو دعاء من العباد لربهم بأمره سبحانه، وذلك تجلٍّ من الله العلي الأعلى بالإرشاد والتعليم فقوله تعالى: (اهْدِنَا)

والدعاء ذاته عبادة كما روينا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: " ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء "[٦٧] (١).

دعاؤهم بطلب الهداية، والهداية ذات مراتب يعلو بعضها فوق بعض. . المرتبة الأولى: أن يملأ سبحانه وتعالى نفوسهم وقلوبهم بالحق يميلون نحوه، ويتجهون إليه، وأن يكونوا ممن كتبت عليهم التقوى، وأن تكون هدايتها إلى نجد الخير، وقد قال، وقوله الحق: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)، وقال سبحانه: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)، وذلك ليكونوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

والمرتبة الثانية: بعد أن تصغي قلوبهم إلى الحق وتنفتح بقوله والنظر في بيناته وهي إقامة الدلائل على الحق ليتبعوه عن بينة، أو تنفتح نفوسهم وعقولهم لقبول ما تدل عليه آيات الكون وأدلة الحق وهي أماراته، بل بيناته من سماء ذات أبراج، وأرض ذات جبال كالأوتاد، وزروع وثمار، ذات بهجة للناظرين، وأن يتدبروا في ملكوت الله تعالى وخلقه فينظروا نظرة الإدراك والاعتبار كما قال تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦).

[٦٧] – أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات – باب: ما جاء في فضل الدعاء (٣٣٧٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء – باب: فضل الدعاء (٣٨٢٩)، وأحمد: كتاب باقي مسند المكثرين (٨٥٣٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه هي المرتبة الثانية من الهداية: وهي أن يهديهم سبحانه إلى مواضع العبر والاستدلال في آياته الكبرى في خلق السماء والأرض وما بينهما، وفي آياته الكونية، ما دقَّ منها وما جلَّ، فهو خالق كل شيء.

أما المرتبة الثالثة: فهي إرسال الرسل هداة مبشرين ومنذرين، (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ)، وإن إرسال الرسل للهداية والإرشاد، وتبليغ رسالته، إنما هو لكيلا يكون على الله حجة بعد الرسل، فهو بعد أن يخلق الخلق على الفطرة المستقيمة، والاستعداد للعلم بالوجود، وما فيه من أدلة على منشئ الوجود، ثم يؤيد العلم الفطري بعلم كسبي وهو علم النبوة الذي يجيء به رسول مبين يدعو إلى الهدى بإذنه ويهدي إلى صراط مستقيم.([٦٨])

والمرتبة الرابعة: مرتبة الوحي والكشف وتعليم الله تعالى لخلقه، وهو ما يكون للرسل الكرام دعاة الحق والهداة إليه، فهداية الله تعالى بالوحي، أو إرسال رسول أو أن يكلمه الله تعالى من وراء شيء من خلقه، كما قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا. . .).

وهكذا هداية الله تعالى تبتدئ من هداية النفس والعقل إلى الحق وطلبه، ثم الإدراك للآيات البينات الدالة على واجب الوجود، ثم هداية الله تعالى بالرسل يرسلهم ليكونوا للعالمين نذيرا، ثم هداية الله تعالى بما يكون لرسله المصطفين الأخيار.

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ) إن هَدَى تتعدى بإلى وباللام كقوله تعالى: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ)، وكقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مسْتَقِيمٍ)، وقوله تعالى: (هدًى لِّلْمُتَّقِينَ)، وقوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ. ..).

---

[٦٨] – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٦٧/١

ولكن هنا لم يتعلَّق قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) بـ " اللام " ولا بـ " إلى "، ولذلك حكمة بيانية، وذلك أنها تضمنت معنى الهداية باختيار خير عاقبة، فتضمنت الهداية معنى الاختيار، ويكون المعنى اهدنا مختارًا لنا في هدايتك الصراط المستقيم. و " اختار " تتعدى بنفسها من غير أداة جر كما قال: (وَاخْتَارَ موسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا).

والصراط معناه الطريق الجدد أو الجادة، وقالوا إنه " السراط " بالسين، وبذلك قرئت في بعض القراءات المتواترة، وقالوا: إن الأصل في السراط الاستراط بمعنى الابتلاع، كأن الطريق يبتلع من يسلكه لاتساعه، وأنه جادة متسعة، لَا يبين سالكها، وقد وصف بأنه المستقيم لأن المستقيم أقرب خط بين نقطتين، فهو أقرب موصل للغاية المرجوة.([٦٩])

والمعنى على هذا: اختر لنا يا رب العالمين أقرب طريق متسع يوصل إلى ما يرضيك، وهو غايتنا، ومطمعنا ورجاؤنا، والصراط المستقيم هو طريق الله الذي أمر باتباعه، فقد قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ. . .)، فهم يطلبون أن يهديهم الله تعالى إلى هذا الطريق المستقيم وهو صراط الذين أنعمت عليهم من عبادك الصالحين.

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

هذا بيان للصراط المستقيم، أي المستوي الذي لَا اعوجاج فيه، وهو معبَّد لا يقف السائر فيه بعثرة يعثرها ولا بحجارة تدعثره، فإعراب (صراط الذين أنعمت عليهم) بدل

٦٩ – المصدر السابق ، ١/ ٦٨

من (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، يعمل فيها عامله (اهْدِنَا) فمعنى النص الكريم اهدنا طريق الذين أنعمت عليهم.

وأصل النعمة ما يستلذه الإنسان أو يستطيبه، ولكنها هنا تفسر بأنها المنفعة التي تدوم، ويستطيبها القلب، سواء أكانت عاجلة أم آجلة، وسواء أكانت دنيوية أم كانت أخروية، وسواء أكانت مادية أم كانت روحية، وإن نعم الله تعالى على عباده لا يحصيها العدُّ ولا يحيط بها الحصر، كما قال تعالى: (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)، فهناك نعمة الخلق الإنساني القويم والتكوين الجسمي السليم الذي يوجد أحيانا الغرور عند غير المؤمنين، كما قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم الَّذِي خلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شَاءَ رَكَّبَكَ).

ومن النعم أن يمكِّنه من زخارف الحياة من لباس حسن يلبسه، وزخرفة باهرة يزخرف بها مسكنه، وطيب رائحة يطيب بها نفسه، ويقبل بها على جمعه، فهذه نعم ظاهرة وباطنة، فإن آمن بالنعم وشكر له، فإنها نعمة، وإن غره الغرور، وفاخر بها، واستطال على الناس فإنها عند الله النقمة.([٧٠])

ومن النعم أن يحس بإشراق النفس وإخلاص القلب، والاتجاه إلى الله تعالى، وأن يكون مستقيم الفكر، نير المدارك، ولا يضل، بل يهتدي بما أنعم، ومن النعم نعمة الإخلاص في القول والصدق فيه، وأن يعمل العمل، لَا يعمله إلا لله، وأن يراقب الله في سره وجهره وعمله، حتى يصدق عليه قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لَا يحبه إلا لله "([٧١]).

---

[٧٠] – المصدر السابق نفس الصفحة

[٧١] – أخرجه البخاري بنحوه، كتاب الأدب – باب: الحب في الله (٦٠٤١).

إذا كان المؤمن كذلك يكون ممن هداه الله إلى صراط الذين أنعم عليهم، كما قال تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا).

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) المغضوب عليهم هم الذين ينزل عليهم غضب الله، ووراء غضبه عذابه إلا أن يتغمدهم الله برحمته فيتوبوا، والتوبة تجبُّ ما قبلها، وبذلك لَا يكونون من المغضوب عليهم، بل ينخلعون منهم، وإنما الأعمال بخواتيمها، وإنما المغضوب عليهم هم من انتهوا إلى ألا يتوبوا، وألا ينتهوا عما يوجب غضب الله تعالى.

والذين ينطبق عليهم غضب الله تعالى لدوام شرهم، وبقاء فسادهم حتى يلقوا ربهم، وهم على هذه الحال – الكافرون سواء أكانوا وثنيين، وكثير ما هم في الماضي والحاضر، أم كانوا من الذين أوتوا الكتاب كاليهود – لعنهم الله – ونصارى بولس الذين يعبدون المسيح، وهو بريء منهم، هؤلاء هم المغضوب عليهم ولا ريب في نزول غضب الله تعالى بهم إلى يوم القيامة (غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم. . .).(٧٢)

والضالون قال بعض العلماء إنهم النصارى لقوله تعالى: (قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ)، وإنه لينطبق عليهم بلا ريب وصف الضالين؛ لأنهم عند تخلِّيهم عن مبادئ المسيح أضلهم بولس وأشباهه، فضلوا، ثم أضلوا غيرهم من بعدهم، وكفروا بما جاء به المسيح، وضلوا ضلالا بعيدا، وكفروا، ولا يزالون يتيهون في أوهامهم، كما توهموا وأوهموا فيما سموه رؤية العذراء، وكذبوا وافتروا، وحاولوا الإضلال كثيرا.

١– زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٧٠/١

ومع انطباق الضلال والتضليل عليهم أولى بهم ثم أولى أن يكونوا ممن غضب الله تعالى عليهم، فغضب الله تعالى يحيط بهم من كل جانب؛ ولذلك نرى أن يدخلوا فيمن غضب الله تعالى عليه، ويصح أن نقول: إن فيهم الأمرين، فهم مغضوب عليهم وهم يَضِلُّون، ويُضِلُّون كثيرا إلى اليوم كما رأيتَ في أمر العذراء.

والضالون كما تدل الآية الكريمة هم الذين في حيرة من أمر اعتقادهم، لا يهتدون إلى عقيدة يطمئنون إليها ويستقرون عليها، وليسوا مع هؤلاء ولا هؤلاء. . ولقد قيل إنهم المنافقون الذين ينطبق عليهم ذلك الوصف، وتلك الحال المضطربة.

ولقد يكون ذلك من ناحية حالهم قريبا في ذاته؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – وصفهم بالاضطراب والحيرة، فقال – صلى الله عليه وسلم – " مَثَلُ المُنَافِقِ كمَثَلِ الشَّاةِ العَائِرَةِ بَيْنَ غَنَمَيْنِ، إِلَى أيهِمَا تَذْهب " ([٧٣]) فالمنافق ضال حائر، لايستقر على قرار، ولا يطمئن إلى إيمان أو كفر، والمنافقون كما وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلا إِلَى هَؤُلَاءِ. . .).

وهم أيضا موضع غضب الله تعالى؛ لأنهم كفار كإخوانهم المغضوب عليهم، ولكنهم اختصوا بأنهم ليس لهم اعتقاد، فالمشركون لهم اعتقاد باطل، وكذلك النصارى واليهود يعتقدون اعتقادًا باطلا ليس لهم سلطان ولا حجة في اعتقادهم.

وقراءة الفاتحة مطلوبة في الصلاة بحيث لَا تكمل الصلاة إلا بها بيد أنها فرضٌ عند الشافعي لَا تصح الصلاة إلا بها، وكذلك عند الجمهور لقوله – صلى الله عليه وسلم

[٧٣] – رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٤)، وأحمد: مسند المكثرين من الصحابة (٥٩ ٠ ٥)، والنسائي: كتاب الإيمان وشرائعه (٥٠٣٧).

-: " لا صَلاةَ لمن لم يقرأ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ " ([٧٤]) ولذلك سميت الصلاة، كما ذكرنا من قبل، لأن الصلاة ملازمة لها، ومن المجاز المرسل أن يسمى اللازم باسم الملزوم؛ ولأن النبي – صلى الله عليه وسلم – ما عُرف أنه ترك قراءة الفاتحة. وعند أبي حنيفة رضي الله عنه الفاتحة واجبة، والواجب عند الحنفية دون الفرض؛ لأن الفرض ما ثبت طلبه حتما بدليل قطعي لَا شبهة فيه. والواجب ما ثبت طلبه الحتمي بدليل ظني فيه شبهة، والفرض في الصلاة بالنسبة للقراءة قراءة ما تيسر من القرآن لقوله تعالى: (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ. . .)؛ ولذلك لو ترك الفاتحة وقرأ أي قدر من القرآن تصح صلاته، وإن كانت غير كاملة؛ لأن الفاتحة تعينت للوجوب بدليل ظني فيه شبهة، وهو حديث الآحاد.

و (آمين) يجب النطق بها عقب قراءة الفاتحة لقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: " وعلمني جبريل آمين عند فراغي من قراءة الفاتحة "، وقال: " إنه كالختم على الكتاب " ([٧٥])

فقد روي أن عليا كرم الله تعالى وجهه قال: (آمين خاتم رب العالمين) ([٧٦]) روي عن وَائِلِ ابنِ حُجْرٍ أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: " ولا الضالين آمين " وفي

---

[٧٤] – أخرجه البخاري: كتاب الآذان – باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم، ومسلم: كتاب الصلاة – باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

[٧٥] – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ٧١/١ (انظر :سنن أبي داود: الصلاة – التأمين وراء الإمام بنحوه.)

[٧٦] – أخرجه ابن عدي، والطبراني في الكبير؛ عن أبي هريرة بلفظ: آمين خاتم رب العالمين على لسان عباده المؤمنين

الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين " ([77])

وهكذا جاءت الأخبار عن النبي – صلى الله عليه وسلم –، بذكر آمين من المأمومين عندما يقرأ الإمام (وَلَا الضَّالِّينَ)، والمنفرد ينطق بها، وبذلك قال جمهور الفقهاء وروى أن أبا حنيفة لم يلتزم ولم يلزم بقولها، وروي عنه أنه يخفت بها ولا يجهر عند قول الإمام ولا الضالين، ومهما يكن ما روي بالنسبة لها من أخبار فإن المجمع عليه أنها ليست من القرآن فهي زيادة بطلب إجابة الدعاء الذي اشتملت عليه فاتحة الكتاب من الضراعة والاستعانة وطلب الهداية، فهي اسم فعل بمعنى استجب.

وإنما أجمع على أنها ليست من القرآن لأنها ليست بين دفتي المصحف كالبسملة، ولأن النبي – صلى الله عليه وسلم – مع طلبها لم يذكر أنها قرآن ولا من القرآن.([78])

ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبيٍّ بن كعب: " ألا أخبرك بسورة لم تنزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها، قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: " إنها الفاتحة وإنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته "([79]).

[77] – الترمذي: الصلاة – ما جاء في التأمين وكذا رواه أبو داود: الصلاة (٩٢٣) وبنحوه عند أحمد: أول مسند الكوفيين (١٨٣٦٢) والدارمي: الصلاة (١٢١٩).

أخرجه البخاري: الأذان: جهر المأموم بالتأمين (٧٨٢)، ومسلم بنحوه: الصلاة: (٢٥٠).

[78] – زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، ١/ ٧٣

[79] – أخرجه الترمذي في سننه: فضائل القرآن: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (٢٨٧٥).

الفصل الخامس
لمسات بيانية في سورة الفاتحة

الحمد لله: معنى الحمد: الثناء على الجميل من النعمة أو غيرها مع المحبة والإجلال، فالحمد أن تذكر محاسن الغير سواء كان ذلك الثناء على صفة من صفاته الذاتية كالعلم والصبر والرحمة أم على عطائه وتفضله على الآخرين. ولا يكون الحمد إلا للحي العاقل.

وهذا أشهر ما فرق بينه وبين المدح فقد تمدح جمادا ولكن لا تحمده؛ وقد ثبت أن المدح أعم من الحمد. فالمدح قد يكون قبل الإحسان وبعده؛ أما الحمد فلا يكون إلا بعد الإحسان، فالحمد يكون لما هو حاصل من المحاسن في الصفات أو الفعل فلا يحمد من ليس في صفاته ما يستحق الحمد؛ أما المدح فقد يكون قبل ذلك فقد تمدح إنساناً ولم يفعل شيئا من المحاسن والجميل ولذا كان المدح منهياً عنه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" احثوا التراب في وجه المداحين" بخلاف الحمد فإنه مأمور به فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم يحمد الناس لم يحمد الله"

وبذا علمنا من قوله: الحمد لله" أن الله حي له الصفات الحسنى والفعل الجميل فحمدناه على صفاته وعلى فعله وإنعامه ولو قال المدح لله لم يفد شيئا من ذلك، فكان اختيار الحمد أولى من اختيار المدح.ولم يقل سبحانه الشكر لله لأن الشكر لا يكون إلا على النعمة ولا يكون على صفاته الذاتية فانك لا تشكر الشخص على علمه أو قدرته وقد تحمده على ذلك وقد جاء في لسان العرب "والحمد والشكر متقاربان والحمد

أعمهما لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه ولا تشكره على صفاته. ([80])

فكان اختيار الحمد أولى أيضاً من الشكر لأنه أعم فانك تثني عليه بنعمه الواصلة إليك والى الخلق جميعا وتثني عليه بصفاته الحسنى الذاتية وان لم يتعلق شيء منها بك. فكان اختيار الحمد أولى من المدح والشكر.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنه قال: الحمد لله ولم يقل أحمد الله أو نحمد الله وما قاله أولى من وجوه عدة:

إن القول " أحمد الله " أو " نحمد الله " مختص بفاعل معين ففاعل أحمد هو المتكلم وفاعل نحمد هم المتكلمون في حين أن عبارة "الحمد لله" مطلقة لا تختص بفاعل معين وهذا أولى فإنك إذا قلت " أحمد الله " أخبرت عن حمدك أنت وحدك ولم تفد أن غيرك حمده وإذا قلت " نحمد الله " أخبرت عن المتكلمين ولم تفد أن غيركم حمده في حين أن عبارة "الحمد لله" لا تختص بفاعل معين فهو المحمود على وجه الإطلاق منك ومن غيرك.

وقول " أحمد الله " تخبر عن فعلك أنت ولا يعني ذلك أن من تحمده يستحق الحمد؛ في حين إذا قلت " الحمد لله" أفاد ذلك استحقاق الحمد لله وليس مرتبط بفاعل معين.

وقول " أحمد الله " أو " نحمد الله " مرتبط بزمن معين لأن الفعل له دلالة زمنية معينة، فالفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ومعنى ذلك أن الحمد لا يحدث

---

[80] – لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور / فاضل صالح السامرائـــي ، عمان ، دار عمار للنشر ، ط٣ ، ٢٠٠٣م ، ص١١– ٧٢

في غير الزمان الذي تحمده فيه، ولا شك أن الزمن الذي يستطيع الشخص أو الأشخاص الحمد فيه محدود وهكذا كل فعل يقوم به الشخص محدود الزمن فإن أقصى ما يستطيع أن يفعله أن يكون مرتبطا بعمره ولا يكون قبل ذلك وبعده فعل فيكون الحمد أقل مما ينبغي فإن حمد الله لا ينبغي أن ينقطع ولا يحد بفاعل أو بزمان في حين أن عبارة "الحمد لله" مطلقة غير مقيدة بزمن معين ولا بفاعل معين فالحمد فيها مستمر غير منقطع.

جاء في تفسير الرازي أنه لو قال " احمد الله " أفاد ذلك كون القائل قادرا على حمده، أما لما قال "الحمد لله" فقد أفاد ذلك، أنه كان محمودا قبل حمد الحامدين وقبل شكر الشاكرين فهؤلاء سواء حمدوا أم لم يحمدوا فهو تعالى محمود من الأزل إلى الأبد بحمده القديم وكلامه القديم.

وقول "أحمد الله" جملة فعلية و"الحمد لله" جملة اسمية والجملة الفعلية تدل على الحدوث والتجدد في حين أن الجملة الاسمية دالة على الثبوت وهي أقوى وأدوم من الجملة الفعلية. فاختيار الجملة الاسمية أولى من اختيار الجملة الفعلية ههنا إذ هو أدل على ثبات الحمد واستمراره.

وقول "الحمد لله" معناه أن الحمد والثناء حق لله وملكه فانه تعالى هو المستحق للحمد بسبب كثرة أياديه وأنواع آلائه على العباد. فقولنا "الحمد لله" معناه أن الحمد لله حق يستحقه لذاته ولو قال "احمد الله" لم يدل ذلك على كونه مستحقا للحمد بذاته ومعلوم أن اللفظ الدال على كونه مستحقاً للحمد أولى من اللفظ الدال على أن شخصاً واحداً حمده.

والحمد: عبارة عن صفة القلب وهي اعتقاد كون ذلك المحمود متفضلا منعما مستحقا للتعظيم والإجلال. فإذا تلفظ الإنسان بقوله: "أحمد الله" مع أنه كان قلبه غافلا عن

معنى التعظيم اللائق بجلال الله كان كاذبا لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامدا مع أنه ليس كذلك. أما إذا قال "الحمد لله" سواء كان غافلاً أو مستحضراً لمعنى التعظيم فإنه يكون صادقاً لأن معناه: أن الحمد حق لله وملكه وهذا المعنى حاصل سواء كان العبد مشتغلاً بمعنى التعظيم والإجلال أو لم يكن. فثبت أن قوله "الحمد لله" أولى من قوله أحمد الله أو من نحمد الله.

فلماذا لم يقل " الحمدَ لله " بالنصب؟

الجواب أن قراءة الرفع أولى من قراءة النصب ذلك أن قراءة الرفع تدل على أن الجملة اسمية في حين أن قراءة النصب تدل على أن الجملة فعلية بتقدير نحمد أو احمد أو احمدوا بالأمر. والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الجملة الفعلية لأنها دالة على الثبوت.

وقد يقال أليس تقدير فعل الأمر في قراءة النصب أقوى من الرفع بمعنى "احمدوا الحمد لله" كما تقول "الإسراع في الأمر" بمعنى أسرعوا؟ والجواب لا فإن قراءة الرفع أولى أيضاً ذلك لان الأمر بالشيء لا يعني أن المأمور به مستحق للفعل. وقد يكون المأمور غير مقتنع بما أمر به فكان الحمد لله أولى من الحمد لله بالنصب في الاخبار والأمر

ولماذا لم يقل " حمداً لله "؟ الحمد لله معرفة بأل و" حمداً " نكرة؛ والتعريف هنا يفيد ما لا يفيده التنكير ذلك أن "أل" قد تكون لتعريف العهد فيكون المعنى: أن الحمد المعروف بينكم هو لله، وقد يكون لتعريف الجنس على سبيل الاستغراق فيدل على استغراق الأحمدة كلها. ورجح بعضهم المعنى الأول ورجح بعضهم المعنى الثاني بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم لك الحمد كله" فدل على استغراق الحمد كله

فعلى هذا يكون المعنى: أن الحمد المعروف بينكم هو لله على سبيل الاستغراق والإحاطة فلا يخرج عنه شيء من أفراد الحمد ولا أجناسه.

"الحمد لله" أهي خبر أم إنشاء؟ الخبر هو ما يحتمل الصدق أو الكذب والإنشاء هو ما لا يحتمل الصدق أو الكذب.

قال أكثر النحاة والمفسرين: أن الحمد لله إخبار كأنه يخبر أن الحمد لله سبحانه وتعالى، وقسم قال: أنها إنشاء لأن فيها استشعار المحبة وقسم قال: أنها خبر يتضمن إنشاء.([٨١])

أحيانا يحتمل أن تكون التعبيرات خبرا أو إنشاء بحسب ما يقتضيه المقام الذي يقال فيه. فعلى سبيل المثال قد نقول (رزقك الله) ونقصد بها الدعاء وهذا إنشاء وقد نقول (رزقك الله وعافاك) والقصد منها أفلا تشكره على ذلك؟ وهذا خبر.

والحمد لله هي من العبارات التي يمكن أن تستعمل خبرا وإنشاء بمعنى الحمد لله خبر ونستشعر نعمة الله علينا ونستشعر التقدير كان نقولها عندما نستشعر عظمة الله سبحانه في أمر ما فنقول الحمد لله.

فلماذا لم يقل سبحانه " إن الحمد لله "؟ لا شك أن الحمد لله لكن هناك فرق بين التعبيرين أن نجعل الجملة خبراً محضا في قول الحمد لله (ستعمل للخبر أو الإنشاء) ولكن عندما تدخل عليه " إن " لا يمكن إلا أن يكون إنشاء، لذا فقول " الحمد لله " أولى لما فيه من الإجلال والتعظيم والشعور بذلك. لذا جمعت الحمد لله بين الخبر

[٨١] – لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور / فاضل صالح السامرائـــي ، عمان ، دار عمار للنشر ، ط٣ ، ٢٠٠٣م ، ص١١– ٧٢

والإنشاء ومعناهما، مثلا نقول رحمة الله عليك (هذا دعاء) وعندما نقول إن رحمة الله عليك فهذا خبر وليس دعاء

من المعلوم انه في اللغة قد تدخل بعض الأدوات على عبارات فتغير معناها مثال: رحمه الله (دعاء) ، قد رحمه الله (إخبار) ، رزقك الله (دعاء) ، قد رزقك الله (إخبار) .

لماذا لم يقل سبحانه " لله الحمد "؟

الحمد الله تقال إذا كان هناك كلام يراد تخصيصه (مثال: لفلان الكتاب) تقال للتخصيص والحصر فإذا قدم الجار والمجرور على اسم العلم يكون بقصد الاختصاص والحصر (لإزالة الشك أن الحمد سيكون لغير الله)

الحمد لله في الدنيا ليست مختصة لله سبحانه وتعالى، الحمد في الدنيا قد تقال لأستاذ أو سلطان عادل، أما العبادة فهي قاصرة على الله سبحانه وتعالى، المقام في الفاتحة ليس مقام اختصاص أصلاً وليست مثل (إياك نعبد) أو (إياك نستعين) . فقد وردت في القران الكريم (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) الجاثية (لآية ٣٦)

لا أحد يمنع التقديم لكن التقديم والتأخير في القرآن الكريم يكون حسب ما يقتضيه السياق، المقام في سورة الفاتحة هو مقام مؤمنين يقرون بالعبادة ويطلبون الاستعانة والهداية؛ أما في سورة الجاثية فالمقام في الكافرين وعقائدهم وقد نسبوا الحياة والموت لغير الله سبحانه لذا اقتضى ذكر تفضله سبحانه بأنه خلق السموات والأرض وأثبت لهم أن الحمد الأول لله سبحانه على كل ما خلق لنا فهو المحمود الأول لذا جاءت فلله الحمد مقدمة حسب ما اقتضاه السياق العام للآيات في السورة.

الحمد لله: جاء سبحانه وتعالى باسمه العلم (الله) ،لم يقل الحمد للخالق أو القدير أو أي اسم آخر من أسمائه الحسنى فلماذا جاء باسمه العلم؟ لأنه إذا جاء بأي اسم آخر

غير العلم لدل على انه تعالى استحق الحمد فقط بالنسبة لهذا الاسم خاصة فلو قال الحمد للقادر لفهمت على انه يستحق الحمد للقدرة فقط لكن عند ذكر الذات (الله) فإنها تعني انه سبحانه يستحق الحمد لذاته لا لوصفه.

من ناحية أخرى " الحمد لله " مناسبة لما جاء بعدها (إياك نعبد) لأن العبادة كثيرا ما تختلط بلفظ الله. فلفظ الجلالة (الله) يعنى الإله المعبود مأخوذة من أله (بكسر اللام) ومعناها عبد ولفظ الله مناسب للعبادة وأكثر اسم اقترن بالعبادة هو لفظ الله تعالى (أكثر من ٥٠ مرة اقترن لفظ الله بالعبادة في القرآن) لذا فالحمد لله مناسب لأكثر من جهة.

" الحمدُ لله " أولى من قول الحمد للسميع أو العليم أو غيرها من أسماء الله الحسنى. وقول الحمد لله أولى من قول أحمد الله أو الحمدَ لله أو حمداً لله أو إن الحمد لله أو الحمد للحي أو القادر أو السميع أو البصير. جلت حكمة الله سبحانه وتعالى وجل قوله العزيز.

رب العالمين:الرب هو المالك والسيد والمربي والمنعم والقيِّم، فإذن رب العالمين هو ربهم ومالكهم وسيدهم ومربيهم والمنعم عليهم وقيُمهم لذا فهو أولى بالحمد من غيره وذكر (رب العالمين) هي أنسب ما يمكن وضعه بعد (الحمد لله)

رب العالمين يقتضي كل صفات الله تعالى ويشمل كل أسماء الله الحسنى، العالمين: جمع عالم والعالم هو كل موجود سوى الله تعالى؛ والعالم يجمع على العوالم وعلى العالمين لكن اختيار العالمين على العوالم أمر بلاغي يعني ذلك أن العالمين خاص للمكلفين وأولي العقل (لا تشمل غير العقلاء) والعالمين جمع العالم بكل أصنافه لكن يغلُب العقلاء على غيرهم فيقال لهم العالمين لا يقال لعالم الحشرات أو الجماد أو

البهائم العالمين وعليه فلا تستعمل كلمة العالمين إلا إذا اجتمع العقلاء مع غيرهم وغلبوا عليهم.

أما العوالم قد يطلق على أصناف من الموجودات ليس منهم البشر أو العقلاء أو المكلفون (تقال للحيوانات والحشرات والجمادات)

اختيار كلمة العالمين له سببه في سورة الفاتحة فالعالمين تشمل جيلاً واحدا وقد تشمل كل المكلفين أو قسما من جيل (قالوا أولم ننهك عن العالمين) (الحجر آية ٧٠) في قصة سيدنا لوط جاءت هنا بمعنى قسم من الرجال.

واختيار " العالمين " أيضاً لأن السورة كلها في المكلفين وفيها طلب الهداية وإظهار العبودية لله وتقسيم الخلق كله خاص بأولي العقل والعلم لذا كان من المناسب اختيار " العالمين " على غيرها من المفردات أو الكلمات. وقد ورد في آخر الفاتحة ذكر المغضوب عليهم وهم اليهود، والعالمين رد على اليهود الذين ادعوا أن الله تعالى هو رب اليهود فقط فجاءت رب العالمين لتشمل كل العالمين لا بعضهم.

أما اختيار كلمة رب فلأنها تناسب ما بعدها (اهدنا الصراط المستقيم) لأن من معاني الرب المربي وهي أشهر معانيه وأولى مهام الرب الهداية لذا اقترنت الهداية كثيراً بلفظ الرب كما اقترنت العبادة بلفظ الله تعالى .

الرحمن على وزن فعلان والرحيم على وزن فعيل ومن المقرر في علم التصريف في اللغة العربية أن الصفة فعلان تمثل الحدوث والتجدد والامتلاء والاتصاف بالوصف إلى حده الأقصى فيقال غضبان بمعنى امتلأ غضبا (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) لكن الغضب زال (فلما سكت عن موسى الغضب) ومثل ذلك عطشان، ريان، جوعان، يكون عطشان فيشرب فيذهب العطش

أما صيغة فعيل فهي تدل على الثبوت سواء كان خلقة ويسمى تحول في الصفات مثل طويل، جميل، قبيح فلا يقال خطيب لمن ألقى خطبة واحدة وإنما تقال لمن يمارس الخطابة وكذلك الفقيه.

هذا الإحساس اللغوي بصفات فعلان وفعيل لا يزال في لغتنا الدارجة إلى الآن فنقول بدا عليه الطول (طولان) فيرد هو طويل (صفة ثابتة) فلان ضعفان (حدث فيه شيء جديد لم يكن) فيرد هو ضعيف (هذه صفته الثابتة فهو أصلاً ضعيف)

ولذا جاء سبحانه وتعالى بصفتين تدلان على التجدد والثبوت معا فلو قال الرحمن فقط لتوهم السامع أن هذه الصفة طارئة قد تزول كما يزول الجوع من الجوعان والغضب من الغضبان وغيره. ولو قال رحيم وحدها لفهم منها أن صفة رحيم مع أنها ثابتة لكنها ليست بالضرورة على الدوام ظاهرة إنما قد تنفك مثلا عندما يقال فلان كريم فهذا لا يعني انه لا ينفك عن الكرم لحظة واحدة إنما الصفة الغالبة عليه هي الكرم.

وجاء سبحانه بالصفتين مجتمعتين ليدل على أن صفاته الثابتة والمتجددة هي الرحمة ويدل على أن رحمته لا تنقطع وهذا يأتي من باب الاحتياط للمعنى وجاء بالصفتين الثابتة والمتجددة لا ينفك عن إحداهما، إنما هذه الصفات مستمرة ثابتة لا تنفك البتة غير منقطعة.

فلماذا إذاً قدم سبحانه الرحمن على الرحيم؟

قدم صيغة الرحمن والتي هي الصفة المتجددة وفيها الامتلاء بالرحمة لأبعد حدودها لأن الإنسان في طبيعته عجول وكثيراً ما يؤثر الإنسان الشيء الآتي السريع وان قل على الشيء الذي سيأتي لاحقاً وإن كثر (بل تحبون العاجلة) لذا جاء سبحانه بالصفة المتجددة ورحمته قريبة ومتجددة وحادثة إليه ولا تنفك لأن رحمته ثابتة. ووقوع كلمة " الرحيم " بعد كلمة الرب يدلنا على أن الرحمة هي من صفات الله تعالى العليا وفيها

إشارة إلى أن المربي يجب أن يتحلى بالرحمة وتكون من أبرز صفاته وليست القسوة والرب بكل معانيه ينبغي أن يتصف بالرحمة سواء كان مربياً أو سيداً أو قيما وقد وصف الله تعالى رسوله بالرحمة.

مالك يوم الدين: هناك قراءة متواترة (ملك يوم الدين) بعض المفسرين يحاولون تحديد أي القراءتين أولى وتحديد صفة كل منهما لكن في الحقيقة ليس هناك قراءة أولى من قراءة فكلتا القراءتين متواترة نزل بهما الروح الأمين ليجمع بين معنى المالك والملك.

المالك من التملك والملك بكسر الميم (بمعنى الذي يملك الملك)

وملك بكسر اللام من الملك بضم الميم والحكم (أليس لي ملك مصر) الملك هنا بمعنى الحكم والحاكم الأعلى هو الله تعالى.

المالك قد يكون ملكا وقد لا يكون والملك قد يكون مالكا وقد لا يكون. المالك يتصرف في ملكه كما لا يتصرف الملك (بكسر اللام) والمالك عليه أن يتولى أمر مملوكه من الكسوة والطعام والملك ينظر للحكم والعدل والإنصاف. المالك أوسع لشموله العقلاء وغيرهم والملك هو المتصرف الأكبر وله الأمر والإدارة العامة في المصلحة العامة فنزلت القراءتين لتجمع بين معنى المالك والملك وتدل على انه سبحانه هو المالك وهو الملك (قل اللهم مالك الملك) الملك ملكه سبحانه وتعالى فجمع بين معنى الملكية والملك

مالك يوم الدين، لِمَ لمْ يذكر الدنيا؟ سواء كان مالكا أو ملكا فلماذا لم يقل مالك يوم الدين والدنيا؟

أولا قال " الحمد لله رب العالمين " فهو مالكهم وملكهم في الدنيا وهذا شمل الدنيا. مالك يوم الدين هو مالك يوم الجزاء يعني ملك ما قبله من أيام العمل والعمل يكون الدنيا فقد جمع في التعبير يوم الدين والدنيا وبقوله " يوم الدين " شمل فيه الدنيا أيضاً.

لم قال يوم الدين ولم يقل يوم القيامة؟

الدين بمعنى الجزاء وهو يشمل جميع أنواع القيامة من أولها إلى آخرها ويشمل الجزاء والحساب والطاعة والقهر وكلها من معاني الدين وكلمة الدين انسب للفظ رب العالمين وانسب للمكلفين (الدين يكون لهؤلاء المكلفين) فهو أنسب من يوم القيامة لأن القيامة فيها أشياء لا تتعلق بالجزاء أما الدين فمعناه الجزاء وكل معانيه تتعلق بالمكلفين لان الكلام من أوله لآخره عن المكلفين لذا ناسب اختيار كلمة الدين عن القيامة.

لماذا قال مالك يوم واليوم لا يملك إنما ما فيه يملك؟ والسبب لقصد العموم ومالك اليوم هو ملك لكل ما فيه وكل من فيه فهو أوسع وهو ملكية كل ما يجري وما يحدث في اليوم وكل ما فيه ومن فيه فهي إضافة عامة شاملة جمع فيها ما في ذلك اليوم ومن فيه وإحداثه وكل ما فيه من باب الملكية (بكسر الميم) والملكية (بضم الميم)

اقتران الحمد بهذه الصفات أحسن وأجمل اقتران. الحمد لله فالله محمود بذاته وصفاته على العموم والله هو الاسم العلم) ثم محمود بكل معاني الربوبية (رب العالمين) لان من الأرباب من لا تحمد عبوديته وهو محمود في كونه رحمن رحيم، محمود في رحمته لان الرحمة لو وضعت في غير موضعها تكون غير محمودة فالرحمة إذا لم توضع في موضعها لم تكن مدحا لصاحبها، محمود في رحمته يضعها حيث يجب أن توضع وهو محمود يوم الدين محمود في تملكه وفي مالكيته (مالك يوم الدين) محمود في ملكه ذلك اليوم (في قراءة ملك يوم الدين)

استغرق الحمد كل الأزمنة،لم يترك سبحانه زمناً لم يدخل فيه الحمد أبداً من الأزل إلى الأبد فهو حمده قبل الخلق (الحمد لله) حين كان تعالى ولم يكن معه شيء قبل حمد الحامدين وقبل وجود الخلق والكائنات استغرق الحمد هنا الزمن الأول وعند خلق العالم (رب العالمين) واستغرق الحمد وقت كانت الرحمة تنزل ولا تنقطع (الرحمن

الرحيم) واستغرق الحمد يوم الجزاء كله ويوم الجزاء لا ينتهي لأن الجزاء لا ينتهي فأهل النار خالدين فيها وأهل الجنة خالدين فيها لا ينقضي جزاؤهم فاستغرق الحمد كل الأزمنة من الأزل إلى الأبد كقوله تعالى له الحمد في الأولى والآخرة هذه الآيات جمعت أعجب الوصف.

قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) :قدم المفعولين لنعبد ونستعين وهذا التقديم للاختصاص لأنه سبحانه وتعالى وحده له العبادة لذا لم يقل نعبدك ونستعينك لأنها لا تدل على التخصيص بالعبادة لله تعالى، أما قول (إياك نعبد) فتعني تخصيص العبادة لله تعالى وحده وكذلك في الاستعانة (إياك نستعين) تكون بالله حصرا

الآن لماذا كررت إياك مع فعل الاستعانة ولم يقل إياك نعبد ونستعين؟

التكرار يفيد التنصيص على حصر المستعان به؛ لو اقتصرنا على ضمير واحد (إياك نعبد ونستعين) لم يعني المستعان إنما عني المعبود فقط ولو اقتصرنا على ضمير واحد لفهم من ذلك انه لا يتقرب إليه إلا بالجمع بين العبادة والاستعانة بمعنى انه لا يُعبد بدون استعانة ولا يُستعان به بدون عبادة. يفهم من الاستعانة مع العبادة مجموعة تربط الاستعانة بالعبادة وهذا غير وارد وإنما هو سبحانه نعبده على وجه الاستقلال ونستعين به على وجه الاستقلال وقد يجتمعان لذا وجب التكرار في الضمير إياك نعبد وإياك نستعين. التكرار توكيد في اللغة، في التكرار من القوة والتوكيد للاستعانة فيما ليس في الحذف.

إياك نعبد وإياك نستعين: أطلق سبحانه فعل الاستعانة ولم يحدد نستعين على شيء أو نستعين على طاعة أو غيره، إنما أطلقها لتشمل كل شيء وليست محددة بأمر واحد من أمور الدنيا. وتشمل كل شيء يريد الإنسان أن يستعين بربه لان الاستعانة غير مقيدة بأمر محدد. وقد عبر سبحانه عن الاستعانة والعبادة بلفظ ضمير الجمع

(نعبد ونستعين) وليس بالتعبير المفرد أعبد وأستعين وفي هذا إشارة إلى أهمية الجماعة في الإسلام لذا تلزم قراءة هذه السورة في الصلاة وتلزم أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين مرة، وفيها دليل على أهمية الجماعة عامة في الإسلام مثل الحج وصلاة الجماعة، الزكاة، الجهاد،الأعياد والصيام. إضافة إلى أن المؤمنين إخوة فلو قال إياك اعبد لأغفل عبادة إخوته المؤمنين وإنما عندما نقول (إياك نعبد) نذكر كل المؤمنين ويدخل القائل في زمرة المؤمنين أيضاً.

لماذا قرن العبادة بالاستعانة؟

أولاً ليدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بعبادة الله إلا بإعانة الله له وتوفيقه فهو إذن شعار وإعلان أن الإنسان لا يستطيع أن يعمل شيئاً إلا بعون الله وهو إقرار بعجز الإنسان عن القيام بالعبادات وعن حمل الأمانة الثقيلة إذا لم يعنه الله تعالى على ذلك، الاستعانة بالله علاج لغرور الإنسان وكبريائه عن الاستعانة بالله واعتراف الإنسان بضعفه.

لماذا قدم العبادة على الاستعانة؟ العبادة هي علة خلق الإنس والجن (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات ٥٦) والاستعانة إنما هي وسيلة للعبادة فالعبادة أولى بالتقديم.

العبادة هي حق الله والاستعانة هي مطلب من مطالبه وحق الله أولى من مطالبه.

تبدأ السورة بالحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين وهذه كلها من أسلوب الغيبة أي كلها للغائب ثم انتقل إلى الخطاب المباشر بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) . فلو قسنا على سياق الآيات الأولى لكان أولى القول إياه نعبد وإياه نستعين. فلماذا لم يقل سبحانه هذا؟

في البلاغة يسمى هذا الانتقال من الغائب للمخاطب أو المتكلم أو العكس " الإلتفات ". للإلتفات فائدة عامة وفائدة في المقام، أما الفائدة العامة فهي تطرية لنشاط السامع وتحريك الذهن للإصغاء والانتباه. أما الفائدة التي يقتضيها المقام فهي إذا التفت المتكلم البليغ يكون لهذه الالتفاتة فائدة غير العامة مثال: (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم) (يونس آية ٢٢) لم يقل وجرين بكم فيها التفات لأنهم عندما ركبوا في البحر وجرت بهم الفلك أصبحوا غائبين وليسوا مخاطبين.

وعندما قال سبحانه الحمد لله رب العالمين فهو حاضر دائما فنودي بنداء الحاضر المخاطب. الكلام من أول الفاتحة إلى مالك يوم الدين كله ثناء على الله تعالى والثناء يكون في الحضور والغيبة والثناء في الغيبة أصدق وأولى أما (إياك نعبد وإياك نستعين) فهو دعاء والدعاء في الحضور أولى وأجدى؛ إذن الثناء في الغيبة أولى والدعاء في الحضور أولى والعبادة تؤدى في الحاضر وهي أولى.

قوله (اهدنا الصراط المستقيم)

هذا دعاء ولا دعاء مفروض على المسلم قوله غير هذا الدعاء فيتوجب على المسلم قوله عدة مرات في اليوم وهذا بدوره يدل على أهمية الطلب وهذا الدعاء لان له أثره في الدنيا والآخرة ويدل على أن الإنسان لا يمكن أن يهتدي للصراط المستقيم بنفسه إلا إذا هداه الله تعالى لذلك. إذا ترك الناس لأنفسهم لذهب كل إلى مذهبه ولم يهتدوا إلى الصراط المستقيم وبما أن هذا الدعاء في الفاتحة ولا صلاة بدون فاتحة فلذا يجب الدعاء به في الصلاة الفريضة وهذا غير دعاء السنة في (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) (البقرة آية ٢٠١)

والهداية: هي الإلهام والدلالة. وفعل الهداية هدى يهدي في العربية قد يتعدى بنفسه دون حرف جر مثل " اهدنا الصراط المستقيم " (تعدى الفعل بنفسه) .

استعمل الهداية معداة بنفسها بدون حرف واستعملها في سياق واحد مع الفعل المعدى بإلى ومعنى الآيات انه من اتبع رضوان الله وليس بعيدا ولا ضالا استعمل له الفعل المعدى بنفسه والذي في الظلمات هو بعيد عن الصراط ويحتاج إلى من يوصله إلى الصراط لذا قال يهديهم إلى صراط مستقيم (استعمل الفعل المعدى بإلى)

نعود إلى الآية " اهدنا الصراط المستقيم " (الفعل معدى بنفسه) وهنا استعمل هذا الفعل المعدى بنفسه لجمع عدة معاني فالذي انحرف عن الطريق نطلب من الله تعالى أن يوصله إليه والذي في الطريق نطلب من الله تعالى أن يبصره بأحوال الطريق والثبات والتثبيت على الطريق وهنا يبرز تساؤل آخر ونقول كما سبق وقدم سبحانه مفعولي العبادة والاستعانة في (إياك نعبد وإياك نستعين) فلماذا لم يقل سبحانه إيانا اهدي؟ هذا المعنى لا يصح فالتقديم بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) تقيد الاختصاص ولا يجوز أن نقول إيانا اهدي بمعنى خصنا بالهداية ولا تهدي أحداً غيرنا فهذا لا يجوز لذلك لا يصح التقديم هنا. المعنى تطلب التقديم في المعونة والاستعانة ولم يتطلبه في الهداية لذا قال (اهدنا الصراط المستقيم) .

فلم قال (اهدنا) ولم يقل اهدني؟ لأنه مناسب لسياق الآيات السابقة وكما في آيات الاستعانة والعبادة اقتضى الجمع في الهداية أيضاً.

فيه إشاعة لروح الجماعة وقتل لروح الأثرة والأنانية وفيه نزع الأثرة والاستئثار من النفس بان ندعو للآخرين بما ندعو به لأنفسنا.

الاجتماع على الهدى وسير المجموعة على الصراط دليل قوة فإذا كثر السالكون يزيد الأنس ويقوى الثبات فالسالك وحده قد يضعف وقد يمل أو يسقط أو تأكله الذئاب، فكلما كثر السالكون كان ادعى للاطمئنان والاستئناس.

لذا فعندما قال سبحانه وتعالى (اهدنا الصراط المستقيم) فيه شيء من التثبيت والاستئناس، هذا الدعاء ارتبط بأول السورة وبوسطها وآخرها. الحمد لله رب العالمين مهمة الرب هي الهداية وكثيرا ما اقترنت الهداية باسم الرب فهو مرتبط برب العالمين وارتبط بقوله الرحمن الرحيم لان من هداه الله فقد رحمه وأنت الآن تطلب من الرحمن الرحيم الهداية أي تطلب من الرحمن الرحيم أن لا يتركك ضالا غير مهتد ثم قال (إياك نعبد وإياك نستعين) فلا تتحقق العبادة إلا بسلوك الطريق المستقيم وكذلك الاستعانة ومن الاستعانة طلب الهداية للصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم أي صراط الذين سلكوا الصراط المستقيم، ولا الضالين، والضالون هم الذين سلكوا غير الصراط المستقيم فالهداية والضلال نقيضان والضالين نقيض الذين سلكوا الصراط المستقيم.

لماذا اختار كلمة الصراط بدلا من الطريق أو السبيل؟ لو لاحظنا البناء اللغوي للصراط هو على وزن (فعال بكسر الفاء) وهو من الأوزان الدالة على الاشتمال كالحزام والشداد والسداد والخمار والغطاء والفراش، هذه الصيغة تدل على الاشتمال بخلاف كلمة الطريق التي لا تدل على نفس المعنى. الصراط يدل على انه واسع رحب يتسع لكل السالكين، أما كلمة طريق فهي على وزن فعيل بمعنى مطروق أي مسلوك والسبيل على وزن فعيل ونقول أسبلت الطريق إذا كثر السالكين فيها لكن ليس في صيغتها ما يدل على الاشتمال. فكلمة " الصراط " تدل على الاشتمال والوسع هذا

في أصل البناء اللغوي (قال الزمخشري في كتابه الكشاف: الصراط من صرط كأنه يبتلع السبل كلما سلك فيه السالكون وكأنه يبتلعهم من سعته) .

قوله (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

لماذا جاءت كلمة الصراط معرفة بأل مرة ومضافة مرة أخرى (صراط الذين أنعمت عليهم) ؟ جاءت كلمة الصراط مفردة ومعرفة بتعريفين: بالألف واللام والإضافة وموصوفا بالاستقامة مما يدل على انه صراط واحد (موصوف بالاستقامة لأنه ليس بين نقطتين إلا طريق مستقيم واحد والمستقيم هو أقصر الطرق وأقربها وصولا إلى الله) وأي طريق آخر غير هذا الصراط المستقيم لا يوصل إلى المطلوب ولا يوصل إلى الله تعالى. والمقصود بالوصول إلى الله تعالى هو الوصول إلى مرضاته فكلنا واصل إلى الله وليس هناك من طريق غير الصراط المستقيم.

ثم زاد هذا الصراط توضيحا وبيانا بعد وصفه بالاستقامة وتعريفه بأل بقول (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) جمعت هذه الآية كل أصناف الخلق المكلفين ولم تستثني منهم أحداً فذكر:الذين انعم الله عليهم هم الذين سلكوا الصراط المستقيم وعرفوا الحق وعملوا بمقتضاه.

الذين عرفوا الحق وخالفوه (المغضوب عليهم) ويقول قسم من المفسرين أنهم العصاة.

وقال تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) ولم يقل تنعم عليهم فلماذا ذكر الفعل الماضي؟

اختار الفعل الماضي على المضارع أولاً: ليتعين زمانه ليبين صراط الذين تحققت عليهم النعمة صراط الذين أنعمت عليهم يدخل في هؤلاء ولو قال " تنعم عليهم " لكان صراط هؤلاء اقل شأنا من صراط الذين أنعم عليهم فصراط الذين انعم عليهم من أولي العزم من الرسل والأنبياء والصديقين أما الذين تنعم عليهم لا تشمل هؤلاء. فالإتيان

بالفعل الماضي يدل على انه بمرور الزمن يكثر عدد الذين انعم الله عليهم فمن ينعم عليهم الآن يلتحق بالسابقين من الذين انعم الله عليهم فيشمل كل من سبق وانعم الله عليهم فهم زمرة كبيرة من أولي العزم والرسل وأتباعهم والصديقين وغيرهم وهكذا تتسع دائرة المنعم عليهم، أما الذين تنعم عليهم تختص بوقت دون وقت ويكون عدد المنعم عليهم قليل لذا كان قوله سبحانه أنعمت عليهم أوسع وأشمل واعم من الذين تنعم عليهم.

لماذا قال صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين؟

أي لماذا عبر عن الذين أنعم عليهم باستخدام الفعل (أنعمت) والمغضوب عليهم والضالين بالاسم؟ الاسم يدل على الشمول ويشمل سائر الأزمنة من المغضوب عليهم والدلالة على الثبوت. أما الفعل فيدل على التجدد والحدوث فوصفه أنهم مغضوب عليهم وضالون دليل على الثبوت والدوام. إذن فلماذا لم يقل المنعم عليهم للدلالة على الثبوت؟

لو قال صراط المنعم عليهم بالاسم لم يتبين المعنى أي من الذي أنعم إنما بين المنعِم (بكسر العين) في قوله (أنعمت عليهم) لأن معرفة المنعِم مهمة فالنعم تقدر بمقدار المنعِم (بكسر العين) لذا أراد سبحانه وتعالى أن يبين المنعم ليبين قدرة النعمة وعظيمها ومن عادة القرآن أن ينسب الخير إلى الله تعالى وكذلك النعم والتفضل وينزه نسبة السوء إليه سبحانه وتعالى. لماذا قال " المغضوب عليهم " ولم يقل أغضبت عليهم؟ جاء باسم المفعول وأسنده للمجهول ولذا ليعم الغضب عليهم من الله والملائكة وكل الناس حتى أصدقاؤهم يتبرأ بعضهم من بعض حتى جلودهم تتبرأ منهم ولذا جاءت المغضوب عليهم لتشمل غضب الله وغضب الغاضبين.

غير المغضوب عليهم ولا الضالين: لم كرر لا؟ وقال غير المغضوب عليهم والضالين؟ إذا حذفت (لا) يمكن أن يُفهم أن المباينة والابتعاد هو فقط للذين جمعوا الغضب والضلالة فقط، أما من لم يجمعها (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فلا يدخل في الاستثناء، فإذا قلنا مثلا: لا تشرب الحليب واللبن الرائب (أي لا تجمعهما) أما إذا قلنا: لا تشرب الحليب ولا تشرب اللبن الرائب كان النهي عن كليهما إن اجتمعا أو انفردا.

فلماذا قدم إذن المغضوب عليهم على الضالين؟ المغضوب عليهم: الذين عرفوا ربهم ثم انحرفوا عن الحق وهم اشد بعدا لان ليس من علم كمن جهل لذا بدأ بالمغضوب عليهم وفي الحديث الصحيح أن المغضوب عليهم هم اليهود وأما النصارى فهم الضالون. واليهود أسبق من النصارى ولذا بدأ بهم واقتضى التقديم.

وصفة المغضوب عليهم هي أول معصية ظهرت في الوجود وهي صفة إبليس عندما أُمر بالسجود لآدم عليه السلام وهو يعرف الحق ومع ذلك عصى الله تعالى وهي أول معصية ظهرت على الأرض أيضاً عندما قتل ابن آدم أخاه فهي إذن أول معصية في الملأ الأعلى وعلى الأرض ولذا بدأ بها.

أما جعل المغضوب عليهم بجانب المنعم عليهم فلأن المغضوب عليهم مناقض للمنعم عليهم والغضب مناقض للنعم.

خاتمة سورة الفاتحة هي مناسبة لكل ما ورد في السورة من أولها إلى آخرها فمن لم يحمد الله تعالى فهو مغضوب عليه وضال ومن لم يؤمن بيوم الدين وأن الله سبحانه وتعالى مالك يوم الدين وملكه ومن لم يخص الله تعالى بالعبادة والاستعانة ومن لم يهتد إلى الصراط المستقيم فهم جميعاً مغضوب عليهم وضالون.

ولقد تضمنت السورة الإيمان والعمل الصالح، الإيمان بالله (الحمد لله رب العالمين) واليوم الآخر (مالك يوم الدين) والملائكة والرسل والكتب (اهدنا الصراط المستقيم) لما تقتضيه من إرسال الرسل والكتب. وقد جمعت هذه السورة توحيد الربوبية (رب العالمين) وتوحيد الإلوهية (إياك نعبد وإياك نستعين) ولذا فهي حقاً أم الكتاب.([٨٢])

[٨٢]- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور / فاضل صالح السامرائــي ، عمان ، دار عمار للنشر ، ط٣ ، ٢٠٠٣م ، ص١١- ٧٢

الفصل السادس
أسلوبية نصية، سورة الفاتحة

أسلوبية نصية، سورة الفاتحة

إنّ التماسك والانسجام والترابط في القُرآنِ الكَريمِ مَبْنيٌّ على نظمٍ متميز تألَفَت وانتظمت دُرَرُه وتَناسَبَت عَناصرُه وأفكاره ، فَلا اختلاف ولا تَنافُرَ ولا تَبايُنَ في جزءٍ من أجزائه، فهو نَظْمٌ مُتَناسبٌ في مَعانيه ومَبانيه، في أصواته ،وألفاظِه وتعابيره ، في إيقاعِه وفَواصلِه. فالسور بل الآيات محكمة البِناءِ، مَطلعُها يُناسبُ مَوضوعَها ومَقاصدهَا وخاتمتَها، ومَعانيها الجُزئيّةُ ومَقاطعُها مُتناسبةٌ تناسباً يرتكزُ عَلى التّوافُقِ ومُراعاةِ النَّظيرِ، فكان التّوافُقَ المَعْنويَّ من أبرزُ عَناصرِ الوحدَةِ في كلِّ سورةٍ ،ومن مَظاهِرِ التّوافُقِ افْتتاحُ السّورةِ بِما يُناسبُ غَرَضَها وروحَها ، واخْتِتامُها بِما يُناسبُ فاتِحَتَها. وهذا يتجلى في سورة الفاتحة أم الكتاب. فهي أنموذجٌ مِن الآيات المجتمعة التي التَأمَتْ فيها سلسلةٌ متآلفة من الفِكَرِ، ونَسقٌ واحدٌ مِن البَيانِ تَتعانقُ فيه الجُملُ والكَلماتُ والحروف، فتشترِكُ الآيات فيها عَلى جُملةٍ من الوَشائجِ اللّفظيةِ والمعنويّةِ التي تَربطُ أجزاءَ السّورةِ الكَريمة بَعضها بِبَعْضٍ، وفي كلِّ جزءٍ منْ أجزاء السّورة أسبابٌ ممدودةٌ، في شَبكةٍ من العَلائق المُحكَمَة النَّسْجِ.

وفي سورة الفاتحة خيط يحبك نسيجه إلى غايَةٍ ،ووَحدةُ نِظامٍ مَعنويّ في جملتها، تدلُّ عليْه ما يُوافقُها من نظامٍ لفظيّ مُوزَّعٍ في سلسلةٍ ذاتِ حَلقاتٍ. فالسّورةُ في جملتها كَلامٌ واحدٌ يَتعلقُ آخرُه بأوّلِه ،وأوّلُه بآخِره، ويَترامى بجملته إلى غَرضٍ واحدٍ هو التفكر والتدبر في عظمة استيفاء النظر في جميعها ، ولا يُتصوّرُ النّسَقُ العامّ للسّورَة إلاّ بإحكامِ النّظرِ في السّورةِ كُلّها أوّلاً، قبلَ البحثِ عنِ الصِّلاتِ الموضعيّةِ بين الجُزْءِ والجُزءِ ،وهي تلكَ الصِّلاتُ المبثوثةُ في مثاني الآياتِ ومَقاطعِها، فَلا بدّ أن يُحْكَمَ النظرُ في السّورةِ كُلّها بإحصاءِ أجْزائِها وضَبطِ مَقاصدِها على وجه يكون

عَوْناً على السّير في تلكَ التّفاصيلِ على بَيّنةٍ ؛وفي سبيل الوصل إلى ذلك الإحكام من التماسك و الاتساق والانسجام،

في سورة الفاتحة جاءت الآيات متناغمة منسجمة ،حيث تتواءم وتتفق النظائر والمتشابهات، فانتظمت الألفاظ والكلمات والأصوات مع بعضها في صورة منسجمة متناغمة لتحقق الترابط الفكري والعقائدي والموضوعي ، فكان هناك تفرد وتميز في إيرادِ المَعاني وانتقاءِ المَباني، بحيث كانت الكلمةُ المُفرَدةُ بمَعناها ومَبْناها مُتمكِّنةً في مَوقعِها بحيث لا يسدُّ مَسدَّها مفردة أخرى ؛ فكان من شأن هذه الوحدة النصية أن تبعث اللذة في النفوس ،والتأثير في الأسماع ،والأثر في القلوب.

فجاءت تسمية السورة " الفاتحة"، فاتحة الكتاب، لتدخل الأمن والأمان والطمأنينة في قلب السامع، فإذا كانت التسمية هي الفاتحة، فهي تفتح وتزيل الغشاوة عن قلوب المقفلة قلوبهم ،والمنصرفة عقولهم ، والمؤصدة صدورهم ، وترسم الطريق الصحيح المستقيم لمنطلق الهداية. ومن مَظاهِرِ التّوافُقِ افْتتاحُ السّورةِ بِما يُناسبُ غَرَضَها وروحَها وخَتْمَها ، واخْتِتامُها بِما يُناسبُ فاتِحَتَها. وهذا ما يسمى بالحلقة المفرغة الذي

يؤدي الأول فيها إلى الآخر، والآخر إلى الأول، فبدأت الآيات بالحمد والثناء للخالق "الله "،وانتهت بطلب الهداية والسير على الطريق الصحيح المستقيم.([٨٣])

[٨٣] - مجلة العلوم العربية ، العدد السادس والثلاثون رجب ١٤٣٦هـ ، ص ٣٠٩، ٣١٠ ، ٣١١

الفصل السابع
ما يؤخذ من سورة الفاتحة من فوائد وأحكام

ما يؤخذ من سورة الفاتحة من فوائد وأحكام

١ – مشروعية الابتداء في بالبسملة في الكتب والرسائل والخطب والمواعظ ونحوها تأسيًا بكتاب الله تعالى، حيث ابتدأ عز وجل كتابه بها ومشروعية الاستفتاح بها عند قراءة أي سورة من سور القرآن، لأن الله افتتح بها سورة الفاتحة وغيرها من السور عدا سورة براءة فلا تشرع البسملة معها.

٢ – مشروعية حمد الله –تبارك وتعالى– في افتتاح الكتب والرسائل والخطب والمواعظ ونحوها تأسيا بكتاب الله– حيث افتتحه جل وعلا بالحمد.

٣ – حمد لله –تعالى– لنفسه ([٨٤]) وثناؤه عليها، وتمجيده لها، لما له من صفات الكمال. قال تعالى: (الحمد لله) ، وقد جاء هذا كثيرا في القرآن الكريم، قال تعالى: {لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ» ([٨٥])

٤ – أمر الله –تعالى– عباده أن يحمدوه ويثنوا عليه ويمجدوه – لما له من صفات الكمال، وتعليمهم كيفية ذلك، لأن قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وان كانت هذه جملة خبرية، فهي متضمنة لمعني الطلب ([٨٦]).

وهكذا جل الآيات التي حمد الله– تعالى– بها نفسه هي متضمنة تعليم عباده وأمرهم أن يحمدوه.

---

[٨٤] – انظر: «تفسير الطبري» ١٣٩:١

[٨٥] – سورة القصص، الآية: ٧٠.

[٨٦] – انظر : تفسير ابن كثير ، ابن كثير ، ٥٢./١

٥ – أن الوصف الكامل مستحق لله على الدوام، وفي جميع الأحوال لقوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} فهي جملة اسمية تفيد الاستمرار والدوام والكمال فهو المحمود على الدوام وبكل حال كما قال تعالى: {لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ} ([٨٧]).

٦ – في قوله تعالى: (الحمد لله) رد على الجبرية، الذين يقولون إن الله جبر العبد على أفعاله، ومن ثم عاقبه عليها– تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، ووجه الرد عليهم: أن في إثبات حمده ووصفه بصفات الكمال ما يقتضي أنه لا يعاقب عباده على ما لا قدرة لهم عليه، ولا هو من فعلهم (٣).

٧ – أن الحمد لا ينبغي أن يكون إلا لمن هو أهل له، ولمقتضي لذلك ([٨٨]) وإلا فهو زور وباطل، لأن الله لما حمد نفسه ذكر ما يقتضي ذلك، وأنه تعالى أهل لذلك لكونه– تعالى–: الله رب العالمين {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} ([٨٩])

٨ – يؤخذ من قوله –تعالى–: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} الإقرار والاعتراف من العبد لله جل وعلا بالكمال من جميع الوجوه وبالفضل والإنعام والإحسان، والإقرار من العبد على نفسه بضعفه وفقره وحاجته إلى ربه في أمور دينه ودنياه.

٩ – إثبات توحيد الأسماء والصفات «توحيد العلم» لأن الله افتتح ([٩٠])

---

[٨٧] – سورة القصص، الآية: ٧٠.

[٨٨] – – اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م ، ج١ ، ٣٠١

[٨٩] – انظر: «الكشاف» ١:٩، «أنوار التنزيل» ١:٩.

[٩٠] – اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، ج١ ، ٣٠٢

١٠- إثبات توحيد الإلوهية، «توحيد العبادة» يؤخذ من اسمه- تعالى: (الله) لأن معناه كما تقدم: المألوه المعبود محبة وتعظيمًا.

١١ - إثبات توحيد الربوبية بقسميه العام لجميع الخلق، والخاص بأولياء الله- تعالى- لقوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} وقوله: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فهو تعالى رب جميع الخلق خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم ومربيهم بجميع النعم، وفي هذا رد على الملحدين الذين ينكرون وجود الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرًا. إذ إن كل ما في الكون من المخلوقات دليل على وجوده وكماله في ذاته وصفاته .([٩١])

١٢ - إثبات علم الله تعالى الشامل، وقدرته التامة من قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} إذ مقتضي ربوبيته للعالمين وخلقة لهم أن يكون عالمًا بهم وبأحوالهم، وأن يكون ذا قدرة تامة نافذة فيهم، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}([٩٢]).

١٣ - إثبات أنه تعالى الأول بلا بداية لأن قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} معناه أنه خالقهم وموجدهم من العدم بعد أن لم يكونوا شيئًا كما قال- تعالى-: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}([٩٣]) أي قد أتي على الإنسان. وهذا يدل على أنه تعالى هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

[٩١] - اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ج١ ، ٣٠٤- ٣٠٦

[٩٢] - سورة الطلاق. الآية: ١٢.

[٩٣٩٣] - سورة الإنسان. الآية: ١.

١٤ – أن الأحق بالاستعانة والمسألة هو اسم «الرب» لأن من معانيه المربي الخالق المالك الرازق المدبر الناصر الهادي.([٩٤])

ولهذا كان جل دعاء الأنبياء والصالحين وسؤالهم بهذا الاسم ([٩٥]).

١٥ – في قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} إشارة إلي تساوي الخلق في الربوبية العامة التي بمعني الخلق والملك والتدبير.([٩٦]) وهذا يدل على أن البشر تجمعهم الربوبية فربهم واحد كما أن أباهم واحد، لا فخر لجنس على جنس إلا بالتقوى وفي هذا رد على من يفتخر بحسبه ونسبه.

١٦ – في إثبات حمده وروبيته للعالمين وتوحيد رد على من قال بقدم العالم فإن في إثبات حمده ما يقتضي ثبوت أفعاله الاختيارية.

١٧ – في إثبات رحمته –تعالى– ورحمانيته رد على الجبرية في أن الله يعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه، ولا هو من فعله، بل يكلفه ما لا يطيق ثم يعاقبه عليه.([٩٧])

---

[٩٤] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م ، ج١ ، ٣٠٧

[٩٥] – انظر «دقائق التفسير» ١٧٦:١ – ١٧٧

[٩٦] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م ، ج١ ، ٣٠٩

[٩٧] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م ، ج١ ، ٣١٠

١٨ – إثبات يوم القيامة، والرد على من أنكر البعث والمعاد الجسماني والتأكيد على أنه محقق الوقوع، ولهذا جعله كالموجود القائم في الحال فقال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} وخصه بالذكر مع أنه تعالى مالك الدنيا والآخرة معا لانقطاع أملاك الخلائق كلها في ذلك اليوم، ولعظم ذلك اليوم كما قال تعالى: {وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}([٩٨]).

١٩ – يؤخذ من قوله –تعالى–: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} الدلالة على أن الملك الحقيقي لله جل وعلا يظهر في ذلك اليوم إذ تنقطع جميع الأملاك سوى ملكه جل وعلا، وأن كل ملك دون ذلك الملك فهو حقير زائل، وأن الدنيا بما فيها من أملاك لا تساوي شيئا بالنسبة للآخرة، وأنها بما فيها من أيام لا تعد شيئا بالنسبة ليوم الدين يوم القيامة، كما قال تعالى: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ} ([٩٩]) وقال تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}([١٠٠]) وقال تعالى: {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ}([١٠١]).

٢٠ – إثبات محاسبة الله للعباد ومجازاته لهم على أعمالهم بالعدل، لقوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} والدين معناه الجزاء بالعدل:([١٠٢])

٢١ – إثبات كتابة الأعمال وتدوينها وإحصائها، لأن المجازاة عليها تقتضي ذلك، إذ كيف يدان عليها ويجازى إلا بعد إحصائها .

---

[٩٨] – سورة البروج، الآية: ١٦.

[٩٩] – سورة الفرقان، الآية: ٢٦.

[١٠٠] – سورة غافر، الآية: ١٦.

[١٠١] – سورة النبأ، الآية: ٣٩.

[١٠٢] – اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م ، ج١ ، ٣١١

٢٢ – الحث على الاستعداد ليوم الدين بالإيمان والعمل الصالح، والتحذير من الكفر والمعاصي.

٢٣ – في تقديم قوله تعالى: {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} على قوله {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} إشارة إلى أن رحمته تعالى سبقت غضبه، كما جاء في الحديث «إن رحمتي سبقت غضبي» ([١٠٣]) يؤيد ذلك تكرار {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} في البسملة والفاتحة. وهذا مما يبعث في قلب المؤمن الطمأنينة، فيلهج بالحمد والثناء لربه الرحمن الرحيم.([١٠٤])

٢٤ – الجميع بين الترغيب والترهيب([١٠٥]) يؤخذ ذلك من قوله تعالى: {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} فهذا ترغيب، ثم قال تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} وهذا ترهيب .

٢٥ – في قول {إِيَّاكَ} رد على الملاحدة والدهرية المنكرين لوجود الله، لأن هذا خطاب لموجود حاضر (١) ... بعلمه وإحاطته مع كل مخلوقات كما قال تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}([١٠٦]).

٢٦ – في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} بعد الآيات قبله انتقال من الغيبة إلى الخطاب لأجل تنبيه القارئ والمستمع وهذا يدل على أنه يحسن الانتقال في الكلام أحيانا

---

[١٠٣] – أخرجه البخاري في بدء الخلق – الحديث ٣١٩٤من حديث أبى هريرة، وكذا مسلم في التوبة –باب في سعة رحمة الله وأنها سبق غضبه الحديث ٢٧٥١

[١٠٤] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م ، ج١ ، ٣١٢

[١٠٥] – المصدر السابق ، ١ /٣١٣

[١٠٦] – سورة المجادلة، الآية:٧

والالتفاف فيه لأجل تنبيه القارئ والمستمع كما أنه أبعث على النشاط وأدعى للإصغاء.

٢٧ – دل قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} على إثبات نوع من أنواع العبودية وهى العبودية (١٠٧)

٢٨ – وجوب إخلاص العبادة لله تعالى بجميع أنواعها اعتقاداً وقولًا وعملًا، والبراءة من الشرك ووسائله، ومن الحول والقوة – لقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ففي تقديم المفعول في الموضعين وفى تكراره، مع: {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ما يؤكد تخصيصه جل وعلا بالعبادة والاستعانة والدعوة إلى عبادة الله، وتخصيصه بجميع أنواع العبادة وغيرها(١٠٨)

٢٩ – دل قوله تعالى: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} على أن العبد لا ينفك عن العبودية حتى الموت كما قال الله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَاتِيَكَ الْيَقِينُ} (١٠٩). أي حتى الموت، ولهذا قال الله تعالى عن أهل النار إنهم يقولون: {وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} (١١٠)أي الموت وهذا بإجماع المفسرين المعتبرين.(١١١)

٣٠ – حاجة جميع الخلق إلى عون الله –تعالى– وإمداده وافتقار

---

١٠٧ – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ١ /٣١٤

١٠٨ – المصدر السابق ، ١ /٣١٨

١٠٩ – سورة الحجر، الآية ٩٩

١١٠– سورة المدثر، الآية:٤٦ – ٤٧

١١١ – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ١ /٣٢٠، ٣٢١

٣١ – تقديم حقه تعالى حق العبد، وتقديم العام على الخاص، والغاية على الوسيلة، والأهم على المهم لقولة تعالى، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

٣٢ – لما كانت عبادة الله تعالى هي أشرف مقام يصل إليه العبد أتبع قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} بقوله: {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} لئلا يتعاظم المرء في نفسه وبداخله العجب بعبادته، وليعلم أن ما حصل له من التذلل لربه والخضوع له إنما هو بعون الله وتوفيقه.

٣٣ – دل قوله –تعالى–: {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} على إثبات القدر، وأن الله فاعل حقيقة ([١١٢]) وإبطال قول القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه. فإن استعانتهم به إنما تكون على شيء هو بيده،. وتحت قدرته ومشيئته، فلو كان بيدهم الفعل فكيف يستعينون على إيجاده بمن ليس ذلك الفعل بيده ([١١٣]).

٣٤ – في نسبة العبادة والاستعانة إلى العباد في قوله (نعبد) ... (ونستعين) دليل على أن ذلك من فعلهم، وأن لهم على ذلك قدرة واختيارًا ومشيئة، وأن العبد حقيقة هو العابد والمستعين، والله هو المعبود مجبور على أفعاله([١١٤]) قال بعض السلف من أقر بـ، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فقد برئ من الجبر والقدر ([١١٥]).

٣٥ – في تقديم قوله –تعالى– {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} دلالة على أن من آداب الدعاء والسؤال أن يقدم السائل بين يدي سؤاله ما يكون سببًا للإجابة من الحمد الله الثناء

---

[١١٢] – المصدر السابق ، ٣٢٢/١

[١١٣] – انظر «مدارج السالكين» ١:٩٠

[١١٤] – انظر تفسير الطبري ، الطبري ، ١٦٨ – ١٦٣ – ١٦٢

[١١٥] – انظر أحكام القرآن للجصاص ٢٣:١

عليه وتمجيده، وإعلان إخلاص العبادة له، والاستعانة به، والبراءة من الشرك ومن الحول والقوة، ثم يسأل حاجته الدينية أو الدنيوية.([116]) ومثل ذلك أن يقدم بين يدي سؤاله الاعتراف بالخطأ والذنب

٣٦ – وجوب دعاء الله والتضرع إليه وسؤاله الهداية([117]) التي هي أجل المطالب لقوله: {اِهْدِنَا الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم} أي: اهدنا إليه وفيه، وذلك بالتوفيق إلى سلوك طريق الإيمان دون سواه وإلى فعل التفاصيل الدينية بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فالعبد في كل لحظة وعند أي عمل في حاجة أن يوفقه الله وعونه وتوفيقه للعبد لانقطعت به الأسباب، وضل عن جادة الصواب فحاجة العبد إلى سؤال الله هذه الهداية ضرورية لسعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة أشد من حاجته إلى الرزق والطعام والشراب وغير ذلك.

٣٧ – في قوله تعالى {اِهْدِنَا الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم} رد على القدرية المجوسية القائلين بأن العبد يخلق فعل نفسه([118]) ولو كان يخلق فعل نفسه ما كان في حاجة إلى أن يسأل الهداية (٢).

٣٨ – إن الهدى الحقيقي الصحيح هو ما جاء عن الله –تعالى– لقول {اِهْدِنَا الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم} فمن التمس من غير الله فهو

[116] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، ٣٢٢/١

[117] – ن المصدر السابق ، ٣٢٦/١

[118] – نفس المصدر ، ٣٢٧/١

٣٩ – مشروعية دعاء المسلم لإخوانه المسلمين حين يدعو لنفسه يؤخذ هذا التعبير بضمير الجمع في قوله: {اِهْدِنَا الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم}([١١٩]). وفي هذا وفي قوله قبله {نَعْبُدُ} و {نَسْتَعِينُ} إشارة إلى فضل الجماعة كما أن في الآيتان بضمير الجمع فيهما تعظيمًا لله تعالى وثناء عليه بسعة مجده وكثرة سائليه.

٤٠ – ربط الأعمال ونجاحها بأسبابها، وربط الأسباب بمسبباتها يؤخذ هذا من قوله: {اِهْدِنَا الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم}. فبهداية الله للعبد وتوفيقه له يسلك الطريق المستقيم فيعرف الحق ويعمل به.

٤١ – أن صراط الله والطريق الموصل إليه عدل مستقيم لا اعوجاج فيه وهو الإيمان بالله –تعالى– ومعرفة الحق والعمل به والعلم النافع والعمل الصالح، وهو المؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، بخلاف طرق الباطل فهي ملتوية معوجة وتؤول بصاحبها إلى الشقاء والهلاك في الدنيا والآخرة.

٤٢ – يؤخذ من قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)} بعد قوله في أول السورة، {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

٤٣ – إن الصراط المستقيم الذي يسأل العبد ربه الهداية إليه هو صراط الذين أنعم عليهم بطاعته وطاعة رسوله – صلى الله عليه وسلم – فأنعِم به من طريق، وأكرم بها من نعمة. وقد أضاف سبحانه وتعالى الصراط إلى الاسم الموصول في قوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} ليعم السؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم بجميع تفاصيله.

---

[١١٩] – انظر التفسير أبن كثير ١:٥٣

٤٤ – أن الهداية للطريق المستقيم بالإيمان بالله والعمل الصالح هي أعظم نعمة على العبد ولا تنال إلا بإنعام الله وتوفيقه للعبد([١٢٠]) وقال تعالى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}.وقال تعالى {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ} ([١٢١]) .فمن وفق ورزق هذه النعمة، وهي نعمة الإيمان

بالله فهو الموفق، وإن فاته ما دونها من النعم، ومن حرمها ولم يوفق لها فذا هو الخاسر المغبون وإن حصل له شيء مما دونها من النعم،

٤٥ – في قوله تعالى «مبنيًا للفاعل الاستعطاف بنسبة النعم إلى الله والاعتراف بنعمه السابقة على العباد فكأنه يقول أسألك يا رب الهداية يا سابق الإنعام والفضل والإحسان، كما في الدعاء([١٢٢])

٤٦ – التنويه بعلو شأن المنعم عليهم وفضلهم ورفعة قدرهم، وعلو درجاتهم يؤخذ هذا من قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}.

٤٧ – الترغيب بسلوك الطريق المستقيم ببيان الرفقة فيه وسالكيه وأنعم بهم من رفقة.([١٢٣])

---

[١٢٠] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، ٣٢٨/١

[١٢١] – سورة الحجرات، الآية: ١٧

[١٢٢] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ١، / ٣٢٩

[١٢٣] – المصدر السابق ١، / ٣٣٠

٤٨ – أن الطريق الحق واحد ولهذا ذكر بالإفراد وعُرّف الموضوعين الأول، والثاني بالإضافة. قال تعالى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} أي الطريق المعهود المعروف([١٢٤])

٤٩ – أن الصراط تارة يضاف إلى سالكيه، كما في قوله – تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} وتارة يضاف إلى الله – تعالى – الذي نصبه وشرعه ووضعه لعباده.

٥٠ – وجوب الاعتراف بالنعمة لموليها ومسديها لقوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} فالمنعم الحق بجميع النعم هو الله.

٥١ – في إثبات حمده بصفات الكمال وإثبات ربوبيته وملكه، وكونه مستعانًا به مسئولًا أن يهدي عباده الصراط المستقيم، وكونه ([١٢٥])

٥٢ – استدل الشنقيطي – رحمه الله ([١٢٦])– بقوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} على صحة إمامة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال «لأنه داخل في الذين أمرنا الله في هذه السورة بأن نسأل أن يهدينا صراطهم. قال: فدل على أن صراطهم هو الصراط المستقيم.

٥٣ – إثبات كمال الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم لقوله تعالى بعد أن ذكر هذا الصراط {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} أي غير صراط المغضوب عليهم، ولا صراط الضالين([١٢٧]) .

---

[١٢٤] – نفسه ،١ / ٣٣٢

[١٢٥] – نفسه ، ١ /٣٣٣

[١٢٦] – في أضواء البيان ١: ٤٢:٤٣

[١٢٧] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، ٣٣٤/١

٥٤ – ينبغي للعبد بعد أن يسأل الله تعالى أن يهديه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم فحققوا التوحيد وأن يسأله أيضًا أن يجنبه صراط المغضوب عليهم ممن عرفوا الحق ولم يعملوا به من اليهود وغيرهم لقوله تعالى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} وهذا هو أفضل دعاء دعا به ربه وأوجبه وأنفعه ([١٢٨]).

٥٥ – إثبات صفة الغضب – لله – كما يليق بجلاله وعظمته وهي من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة لكن لا يشتق منها اسم على الإطلاق([١٢٩])

٥٦ – ينبغي للعبد أن يسلك من الطرق أحسنها وأصلحها وأقومها، وأن يختار لنفسه القدوة الحسنة، والأسوة الصالحة، بسلوك طريق النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وأن يحذر من طرق الكفر والبغي والضلال، التي هي مسالك اليهود والنصارى وغيرهم.

٥٧ – أن من أخص صفات اليهود الغضب، لأنهم عرفوا الحق وتركوه، كما قال تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} ([١٣٠]). وأن من أخص أوصاف النصارى الضلال، لأنهم عبدوا الله على جهل وضلال كما قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} ([١٣١]) ولهذا وصف الله في سورة الفاتحة كلًا من اليهود والنصارى

---

[١٢٨] – انظر مجموع الفتاوى ١٧: ١٣٢

[١٢٩] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، ٣٣٥/١

[١٣٠] – سورة المائدة: الآية: ٦٠

[١٣١] – سورة المائدة، الآية: ٧٧

بأخص أوصافهم فقال {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} يعني اليهود {وَلَا الضَّالِّينَ} يعني النصارى. وإلا فكل من الطائفتين مغضوب عليه وضال.

٥٨ – أن كل من سلك مسلك أحد الطائفتين شمله وصف تلك الطائفة كما قال سفيان: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود. ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى».([١٣٢])

٥٩ – دل قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} وما بعده على أن الناس ينقسمون بحسب معرفة الحق والعمل به إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم بمعرفة الحق والعمل به إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم بمعرفة الحق والعمل به، وقسمان مخذولان، أحدهما: من عرفوا الحق وتركوه كفرًا وعنادًا، وهم اليهود، ومن سلك مسلكهم، ولهذا استحقوا غضب الله تعالى. والقسم الثاني: من ضلوا عن الحق وجهلوه من النصارى، ومن سلك مسلكهم، ولهذا وصفهم الله بالضلال ([١٣٣]).

٦٠ – في إسناد النعمة إلى الله تعالى، وإضافتها إليه([١٣٤]) في قوله: {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} إشارة إلى تفرده بالإنعام، وتكريم المنعم عليه. وفي حذف فاعل الغضب في قوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ} إشارة إلى أن الغضب عليهم لا يختص به تعالى- بل ملائكته وأنبياؤه ورسله يغضبون لغضبه، كما أن في ذلك إشعارًا بإهانة المغضوب عليهم وتحقيرهم.

---

[١٣٢] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، ٣٣٦/١

[١٣٣] – انظر «مدارج السالكين» ١: ٣٤

[١٣٤] – اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، ٣٣٧/١

٦١ – بلوغ القرآن غاية الإيجاز مع الفصاحة والبيان. فإن الله وصف كلًا من الطوائف الثلاث بوصف يستلزم الجزاء وسببه بأوجز لفظ في قوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}([135]) .

٦٢ – الترغيب في سلوك سبيل المنعم عليهم والمؤمنين والترهيب من سلوك طريق المغضوب عليهم والضالين يؤخذ هذا من المقابلة بين الهداية والنعمة والغضب والضلال.

٦٣ – دلت السورة على إثبات النبوات ووجوب الإيمان بالكتب والرسل.

٦٤ – تضمنت السورة الدلالة على سعة علم الله – عز وجل– وخبرته وتعلق علمه بالجزئيات، والرد على من أنكر ذلك من وجوه لأن كونه محمودًا موصوفًا بصفات الكمال يقتضي أن يعلم أحوال العالم وتفاصيل جزئياته، وكونه إلهًا معبودًا يقتضي أن يعلم من يعبده ممن يعبد سواه، وكونه ربًا للعالمين يقتضي أن يكون عالمًا بتفاصيل

٦٥ – اشتمل قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} وما بعده إلى آخر السورة على الرد على جميع طوائف الكفر والضلال، وذلك على سبيل الإجمال لأن الحق في معرفة ما جاء به المصطفى – صلى الله عليه وسلم – والسير على نهجه، وما عداه من المسالك والسبل الملتوية والمعوجة مردودة باطلة.

٦٦ – تضمنت السورة شفاء القلوب، كما تضمنت شفاء الأبدان([136])

---

[135] – المصدر السابق ، ٣٣٨/١

[136] – نفسه ، ٣٣٩/١-٣٤٦

الخاتمـــــــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين ، أما بعد:

فإن الله جل وعلا شرع لعباده في كل ركعة من الصلاة أن يقرأوا فاتحة الكتاب، وهي أم القرآن، وهي أعظم سورة في كتاب الله كما صح بذلك الخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: إنها أعظم سورة في كتاب الله، وإنها السبع المثاني، والقرآن العظيم، وهي الحمد.

هذه السورة العظيمة اشتملت على الثناء على الله وتمجيده جلّ وعلا وبيان أنه سبحانه هو المستحق لأن يعبد وأن يستعان به ، واشتملت على تعليم العباد، وتوجيه العباد إلى أن يسألوه الهداية إلى الصراط المستقيم.

فمن نعم الله العظيمة على عباده هذه السورة العظيمة، وأن شرع لهم قراءتها في كل ركعة في الفرض والنفل، بل جعلها ركن الصلاة في كل ركعة ، ولأهمية هذه السورة كانت هذه الدراسة لهذه السورة العظيمة وقد دونتها في كتاب سميته **(اِتِّكَاءَةٌ مَعَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ)** في فصول متنوعة شاملة ، فقد بدأت بالتعريف بها ثم التوجيه النحوي للقراءات القرآنية في سورة الفاتحة و إعرابها وتفسيرها ثم لمسات بيانية ودراسة نصية أسلوبية ثم ختمت تلك الدراسة بالمآخذ والأحكام ثم كانت الخاتمة وقائمة بأهم المصادر والمراجع والفهارس .

وقد استعنت بهذه الدراسة بأمهات الكتب ككتب إعراب القرآن وتفسيره وغيرها من المصادر والمراجع ، وختاما أسأل الله التوفيق والإعانة .

أ.د/ عبد الباقي محمد البرير يوسف

أهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢-الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، تحقيق : مركز الدراسات القرآنية.

٣- أحكام القرآن ، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر ، المحقق: محمد صادق قمحاوي ، دار إحياء الكتب العربية - مؤسسة التاريخ العربي ، سنة النشر: ١٤١٢ - ١٩٩٢م .

٤- أسباب النزول؛ لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) - نشر دار الكتب العلمية.

٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، الشنقيطي؛ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر ، مجمع الفقه الإسلامي، جدة.

٦- إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محي الدين الدرويش ، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٤.

٧- إملاء ما منى به الرحمن، أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

٨- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي ، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار التراث، تاريخ النشر ١٤٣٩هـ.

٩- التبيان في إعراب القرآن أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري دار الفكر سنة النشر: ١٤٢١هـ.

١٠- تفسير ابن كثير ، ابن كثير؛ إسماعيل بن عمر بن كثير، المحقق: سامي بن محمد السلامة.

١١- تفسير أبي السعود، لابي السعود، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا ، مكتبة الرياض الحديثة.

١٢- تفسير الإمام ابن عرفة ، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله ، المحقق: د. حسن المناعي الناشر: مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس ،ط١ ، ١٩٨٦م.

١٣- تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ، دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت – ٢٠٠١ م ط١.

١٤- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر.

١٥- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) ، ابن جرير الطبري؛ محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر ، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر للطباعة والنشر ، دار صادر – بيروت .

١٦- زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، دار الفكر العربي.

١٧- سنن الترمذي (الجامع الكبير) ، الترمذي؛ محمد بن عيسى المحقق: بشار عواد معروف.

١٨- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري ، دار طوق النجاة .

١٩- صحيح الترغيب والترهيب ،المنذري؛ المحقق: محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، ٢٠٠٠ م.

٢٠- صحيح مسلم ، الإمام مسلم؛ مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، أبو الحسين ، المحقق: مركز البحوث وتقنية المعلومات – دار التأصيل ، سنة النشر: ١٤٣٥ – ٢٠١٤م ، ط١.

٢١- ضعيف الجامع الصغير وزيادته ، الألباني، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٨م ، ط٣.

٢٢- الكشاف ، الزمخشري ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٩٥م ، ، ط١.

٢٣- لباب التأويل، الخازن ، المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٤م ،ط١.

٢٤- اللباب في تفسير الاستعادة والبسملة وفاتحة الكتاب ، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم ، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٢٥- لسان العرب ،ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور.

٢٦- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور / فاضل صالح السامرائي ، عمان ، دار عمار للنشر ، ط٣ ، ٢٠٠٣م.

٢٧- مجلة العلوم العربية ، العدد السادس والثلاثون رجب ١٤٣٦هـ.

٢٨- معاني القرآن ، أبو زكريا الفراء ، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ،الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

٢٩- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ،مكتبة الشروق الدولية ،سنة النشر ٢٠٠٤م،ط١

٣٠- وفيات الأعيان ، ابن خلكان، بيروت، دار صادر ١٩٧٠م.